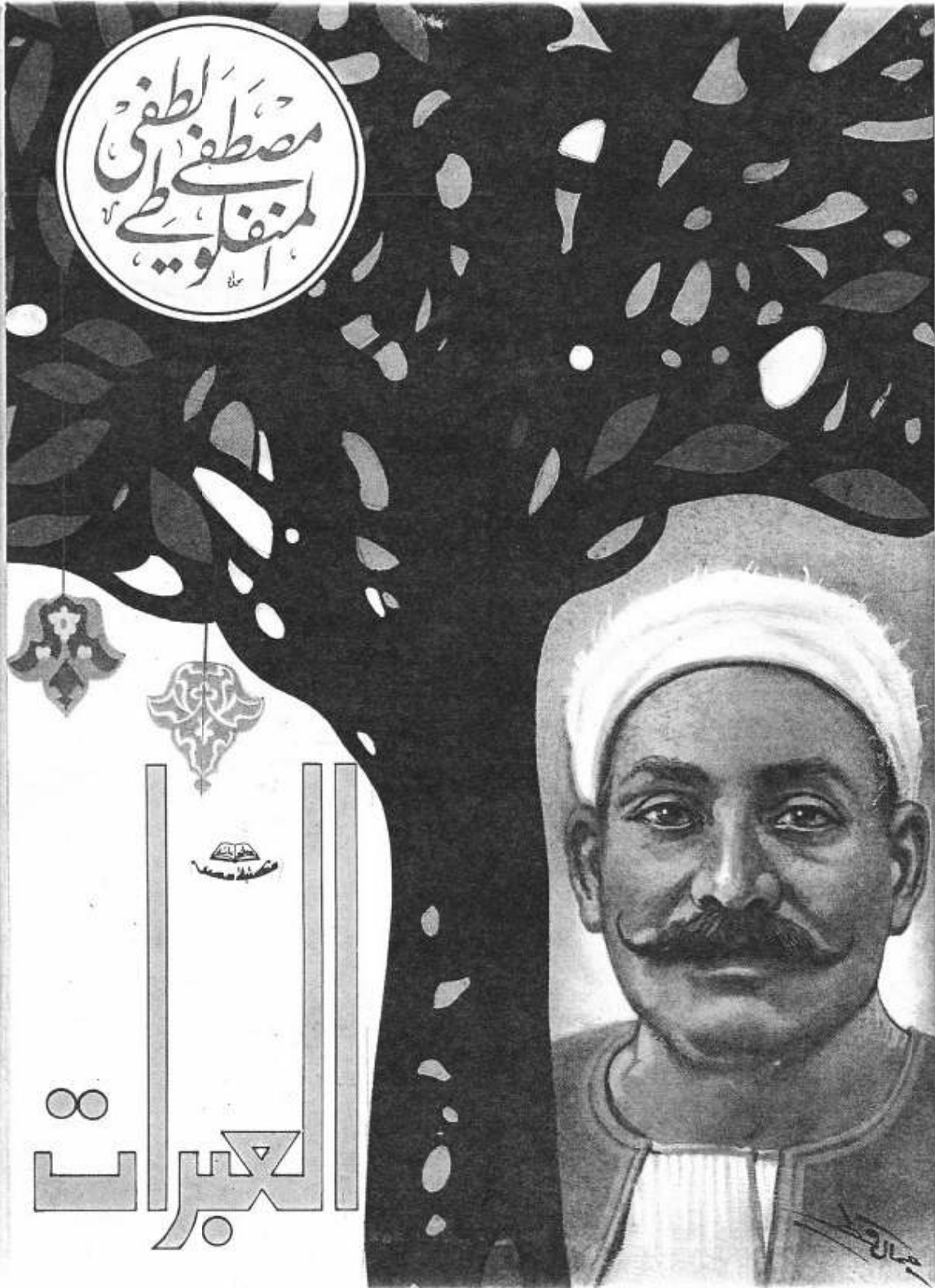


مصطفیٰ لطفی
لمتفکر کے لیے
اعمال



عجرات

جمال

إهداء

الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة
بائسٍ مثلي أن يمحو شيئاً من يؤسبهم
وشقائهم ، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم
هذه العبرات ، علّهم يجدون في بُكائي عليهم
تغزيةً وسلوى .

مصطفى لطفى المنفلوطي

فوقها ؛ فمحا من كلماتها ما يحا ، ومشى ببعض مدادها إلى بعض ، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه ، فتناول قلمه ، ورجع إلى شأنه الذي كان فيه .

فأحزنتني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفردا بنفسه في غرفة عارية باردة ! لا يتقى فيها عادية البرد بدثار ولا نار ، يشكو همًا من هموم الحياة أو رُزْءًا^(١) من أرزائها ، قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان ، من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً .

وقلت : « لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع^(٢) الشاحب نفسٌ قَرِيحَةً معذبة تدوب بين أضلاعه ذَوْبًا ، فيتهافت لها جسمه تهافت الخبياء المَقْوُوس . »

فلم أزل واقفا مكاني لا أبرحه ، حتى رأيتَه قد طوى كتابه ، وفارق مجلسه ، وأوى إلى فراشه ، فانصرفت إلى مَحْدَعِي ، وقد مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق من سواده في صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليها .

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إما باكيًا ، أو مطرقًا أو ضاربًا برأسه على صدره ، أو منطويًا على نفسه في فراشه بين أنين الوالهة التكللي ، أو هائمًا في غرفته يذرع أرضها ، ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكيًا منتحبًا ، فأتوجع له ، وأبكي لبكائه ، وأتمنى لو استطعت أن أداخله^(٣) مُدَاخِلَةَ الصديق لصديقه وأَسْتَبِيْهُ^(٤) ذات نفسه وأشركه في همه ؛ لولا أننى كرهت أن أفجأه بما لا يحب ، وأن أهجم منه على

اليتيم

« موضوعة »

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فنى في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره . وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر ؛ فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي ، وكانت على كُتْبٍ من بعض نوافذ غرفته . فأرى أمامي فتى شاحبًا ، نحيلًا ؛ منقبضًا ، جالسًا إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ، ينظر في كتاب ، أو يكتب في دفتر ، أو يستظهر قطعة ، أو يعيد درسًا ، فلم أكن أحفل بشيء من أمره .

حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قرّة من ليالي الشتاء ، فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشئون ، فأشرفت عليه ، فإذا هو جالس جلسته تلك : أمام مصباحه ، وقد أكبّ بوجهه على دَفْتَرٍ منشور بين يديه ، على مكتبه ، فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر ، قد عبثت بجفنيه سِنَّةً من النوم ؛ فأعجلته من الذهاب إلى فراشه ، وسقطت به مكانه ؛ فما رُمْتُ مكاني^(١) حتى رفع رأسه ، فإذا عيناه مُخَضَّلَتَانِ^(٢) من البكاء ، وإذا صفحة دفتره التي كان مُكَبِّبًا عليها قد جرى دمعاه

(١) رام مكانه : زال عنه وفارقه . (٢) مُخَضَّلَتَانِ : مُتَلَتِّلَتَانِ .

(١) الضارع : الضعيف النحيل . (٢) الرُّزْءُ : المُصِيبَةُ .
(٣) دَاخِلَةٌ فِي أُمُورِهِ : شَارِكَةٌ فِيهَا . (٤) اسْتَبَيْتُهُ السَّر : طَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَبِيْهَ إِلَيَّ .

سر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في صدره ، وأن يكاتمه الناس جميعا .
حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هذأة من الليل ، فرأيت غرفته مظلمة
ساكنة ، فظننت أنه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة
أنه ضعيفة مستطيلة فأزعجني مسمعا وخيل إلي ، وهي صادرة من أعماق
نفسه ، كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي ، وقلت : « إن الفتى مريض
ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه ، وقد بلغ الأمر مبلغ الجِدِّ فلا بد لي من
المصير إليه . »

فتقدمت ^(١) إلى خادمي أن يتقدمني بمصباح ، حتى بلغت منزله ،
وصعدت إلى باب غرفته ، فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف
على باب قبر ، يحاول أن يبهطه ليودع ساكنه الوداع الأخير .

ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس بي ، وكأنا كان ذاهلا أو مستغرقا ؛
فأدهشه أن يرى بين يديه مصباحا ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصاً إلي
هنيئاً لا ينطق ولا يطرف ^(٢) ، فاقتربت من فراشه وجلست بجانبه ،
وقلت :

« أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً
شديداً ، وغلمت أنك وحدك في هذه الغرفة ؛ فعناني أمرك ؛ فجتتك عنني
أستطيع أن أكون لك عوناً على شأنك ، فهل أنت مريض ؟ »

فرفع يده ببطء ، ووضعها على جبهته ، فوضعت يدي حيث وضعها ،
فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم ، ثم أمررت نظري على جسمه
فإذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه ، وإذا قميص فضفاض ^(٣)

(١) تقدم إلى فلان بكذا : أمره به . (٣) الفضفاض : الواسع .

(٢) طَرف فلان بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر .

من الجلد يموج فيه بدنه موجاً .
فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى ، فجرَّعته
منه بضع قطرات ، فاستفاق قليلاً ونظر إلي نظرة عذبة صافية ، وقال :

« شكراً لك . »

فقلت : « ما شكاكك أيها الأخ ؟ »

قال : « لا أشكو شيئاً . »

فقلت : « فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه ؟ »

قال : « لا أعلم ! »

قلت : « أنت في حاجة إلى الطبيب ، فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر
في أمرك ؟ »

فتهد طويلاً ونظر إلي نظرة دامعة ، وقال : « إنما يغى الطبيب من يؤثر
الحياة على الموت ! »

ثم أغمض عينيه ، وعاد إلى ذهوله واستغراقه . فلم أجد بداً من دعاء
الطبيب رضى ذلك أم أبى ، فدعوته ، فجاء متأففاً متذمراً ، يشكو — من
حيث يعلم أني أسمع شكواه — إزعاجه من مرقده وتجشيمه حوض الأزقة
المظلمة في الليالي الباردة ! فلم أحفل بتعريضه ؛ لأنني أعلم طريق الاعتذار
إليه ؛ فجس نبض المريض وهمس في أذني قائلاً :

« إن عليك يا سيدي مشرف على الخطر ، ولا أحسب أن حياته تطول
كثيراً إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم . »

وجلس ناحية يكتب ذلك الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمالهم الصيادلة
أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعدما
اعتذرت إليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه .

فأحضرت الدواء ، وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ، ذاهلة النجم ،

بعيدة ما بين الطرفين ، أسقيه الدواء مرة ، وأبكي عليه أخرى ، حتى انبثق نور الفجر ؛ فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني ، فقال : « أنت هنا ؟ »

قلت : « نعم ، وأرجو أن تكون أحسن حالاً من ذي قبل . »

قال : « أرجو أن أكون كذلك . »

قلت : « هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت ؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان ؟ وهل أنت غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه ؟ وهل تشكو داءً ظاهراً أو همًا باطنياً ؟ »

قال : « أشكوهما معاً . »

قلت : « فهل لك أن تحدثني بشأنك وتفضي إليّ بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه ، فقد أصبحت معنيًا بأمرك عنايتك بنفسك ؟ »

قال : « هل تعدني بكتبان أمرى إن قسم الله لي الحياة ، وبإمضاء وصيتي إن كانت الأخرى ؟ »

قلت : « نعم . »

قال : « قد وثقت بوعدك ؛ فإن من يحمل في صدره قلباً شريفاً مثل قلبك ؛ لا يكون كاذباً ولا غادراً . »

« أنا فلان بن فلان ، مات أبي منذ عهد بعيد ، وتركني في السادسة من عمري فقيراً معدماً لا أملك من متاع الدنيا شيئاً ، فكفلني عمي فلان ؛ فكان خير الأعمام ، وأكرمهم ، وأوسعهم برّاً وإحساناً وأكثرهم عطفاً وحناناً ؛ فقد أنزلي من نفسه منزلة لم ينزلها أحداً من قبلي غير ابنته الصغيرة ، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلاً . وكأنما سرّه أن يرى لها بجانبها أخاً بعدما تمنى على الله ذلك زمناً طويلاً فلم يدرك أمنيته ، فعنّى لي عنايته بها وأدخلنا المدرسة

في يوم واحد ، فأنست بها أنس الأخ بأخته ، وأحبتها حباً شديداً ، ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبوي من حين إلى حين .

« فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبين إلى المدرسة أو عائدتين منها ، أو لا عين في فناء المنزل أو مرتاضين في حديقته ، أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدثين في غرفة النوم ، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمرت في دراستي . »

« ولقد عقد الود بين قلبي وقلبا عقداً لا يحله إلا ريب المنون ، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أرى نور السعادة إلا في فجر ابتساماتها ، ولا أؤثر على ساعة أقضيها بجانبها جميع لذات العيش ومسرات الحياة . وما كنت أشاء أن أرى نخصلة من خصال الخير في فتاة من : أدب ، أو ذكاء ، أو حلم ، أو رحمة ، أو عفة ، أو شرف ، أو وفاء إلا وجدتها فيها . »

« وإني أستطيع ، وأنا في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان ، أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تظللنا معاً أيام طفولتنا ؛ فتشرق لها نفسانا لإشراق الراح في كأسها . »

« وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدي أرى لألاء مائها ، ولمعان حصبائها ، وأفانين أشجارها ، وألوان أزهارها . »

« وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار ، فنجتمع على حديث نتجاذبه ، أو طاقة نؤلف بين أزهارها ، أو كتاب نقلب صفحاته ، أو رسم نتبارى في إتقانه . »

« وتلك الحمائل الخضراء التي نلجأ إلى ظلها كلما فرغنا من شوط من

أشواط المسابقة فنشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها .
« وتلك الحفائر الصغيرة التي نحتفرها ببعض الأعواد على شاطئ الجداول
والغدران فنملؤها ماء ، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي ألقيناها فيها
بأيدينا ؛ فنطرب إن ظفرنا بشيء منها كأننا قد ظفرنا بغنم عظيم .

« وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نرى فيها عصافيرنا وطيورنا ،
ثم نقضى الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء ،
وهي تمسو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى ونناديها بأسمائها التي سميناها بها ،
فإذا سمعنا صفيرها وتغريدها ظننا أنها تلبى نداءنا .

« ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره في نفسي لابنة عمى وداً وإخاءً ، أو
حُباً وغراماً ؟ ولكننى أعلم أنه كان بلا أمل ، ولا رجاء ، فما قلت لها يوماً إنى
أحبها ؛ لأننى كنت أضن بها — وهى ابنة عمى ورفيقة صباى — أن أكون أول
فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها . ولا قدرت في نفسى يوماً من الأيام أن أصل
أسباب حياتى بأسباب حياتها ؛ لأننى كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على
فتى بائس فقير مثلى . ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط (١) منها ما
يطمع في مثله المحبون المتسقطون ؛ لأننى كنت أجعلها عن أن أنزل بها إلى مثل
ذلك . ولا فكرت يوماً أن أستشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها ؛ لأعلم أى
المنزلتين أنزلها من قلبها : أمنزلة الأخ فأقع منها بذلك ، أم منزلة الحبيب ،
فأستعين بإرادتها على إرادة أبويها ؟ بل كان حيبى لها حب الراهب المتبتل صورة
العذراء المائلة بين يديه في صومعته ، يعبدها ولا يتطلع إليها !

« ولم يزل هذا شأنى وشأنها ، حتى نزلت بعمى نازلة من المرض لم

تثشّب (١) أن ذهبت به إلى جوار ربه . وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات
حياته أن قال لزوجته ، وكان يحسن بها ظناً : لقد أعجلنى الموت عن النظر في
شأن هذا الغلام ، فكونى له أمماً كما كنت له أباً ، وأوصيك أن لا يفقد منى بعد
موتى إلا شخصى .

« فما مرت أيام الحداد ، حتى رأيت وجوهاً غير الوجوه ونظرات غير
النظرات ؛ وحالاً غريبة لا عهد لى بمثلها من قبل ؛ فتداخلى الهم واليأس
ووقع في نفسى للمرة الأولى في حياتى أننى قد أصبحت في هذا المنزل غريباً ،
وفي هذا العالم طريداً .

« فإنى لجالس في غرفتى صبيحة يوم إذ دخلت على الخادم ، وكانت امرأة
من النساء الصالحات المخلصات ، فتقدمت نحوى تحجلة متعثرة . وقالت :
« قد أمرتنى سيدتى أن أقول لك يا سيدى إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في
عهد قريب ، وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن
التي بلغتاهما ربما يريها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكناً هذا
الجناح الذى تسكنه من القصر ؛ فهى تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره
لنفسك من بين منازلها ، على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك ، وكأنك لم
تفارقها .

« فكأنما عمدت إلى سهم رائش فأصممت به كبدى ، إلا أننى تماسكت
قليلاً ريثما قلت لها : « سأفعل إن شاء الله ولا أحبب إلى من ذلك . »
فانصرفت لشأنها ، فخلوت بنفسى ساعة أطلقت فيها السيل لعبرانى ، ما شاء
الله أن أطلقها ، حتى جاء الليل ، فعمدت إلى حقيبتى فأودعتها ثيابى وكتبى ،

(١) لم تثشّب : لم تلبث .

(١) تسقط فلان الحبر : أخذه شيئاً بعد شيء .

وقلت في نفسي :

« قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحببته وأحببت نفسي من أجله ، وقد حيل بيني وبينه فلا آسفُ على شيء بعده . »
« ثم انسللت من المنزل انسلالاً من حيث لا يشعر أحد بما كان ، ولم أتزود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كِلْتها^(١) وهي نائمة في سريرها ، فكانت آخر عهدي بها :

لعمرك ما فارت بغداد عن قِلي

لو أنا وجدنا من فراق لها بُداً

كفى حَزَنًا أن رحلت لم أستطع لها

وداعاً ، ولم أجدت بساكنها عهداً

« وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته ، وخرجت منه شريداً طريداً حائراً ملتاعاً ، قد اصطلحت على الهموم والأحزان . فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا ساداً لخلته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسياً ، ولا معيناً .

« وكانت معي صِباة^(٢) من مال قد بقيت في يدي من آثار تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة العارية في هذه الطبقة العليا مسكنًا فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة ؛ فأزمت الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله ومنتفح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها . فرحلت رحلة طويلة ، قضيت فيها بضعة أشهر ، لا أهبط بلدة حتى تنازعني نفسي إلى أخرى ، ولا تطلع على الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره . حتى شعرت في آخر الأمر

(١) الكِلَّة : الستَّر الرقيق . (٢) الصِباة . البَقِيَّة من الشيء .

بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في مَحَجَر العين لا يفيض ، ولا يفيض .

« فقنِعتُ بذلك ، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت ، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم : منفرداً كمجتمع ، وغائباً كحاضر ، وبعيداً كقريب ، وأن أهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه ، وأن أستعين على نسيان الماضي باجتئاب مواطنه ومظاهره .

« فلزمت غرفتي ومدرستي أداول بينهما لا أفارقهما ، ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين ؛ فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما بي ، فأجد برد الراحة في صدري .

« لبِثْتُ على ذلك بُرْهة من الزمان ، حتى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فإذا هي ناضبة أو موشكة . وكنت مأخوذاً بأن أهيب نفسي عيشاً مستقلاً ، وأن أؤدي للمدرسة قسطاً من أقساطها ، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئةً ، والعلم في هذه الأمة مُرْتَزَقٌ يرتزق منه المرتزقون ، لا منحة يمنحها المحسنون ؛ فأهتمني نفسي ، وعلمت أني مشرف على الخطر ، ولا أعرف سبيلاً إلى القوت بوجه ولا حيلة .

« فعمدت إلى كسبي ، فاستبقيت منها ما لا غنى لي عنه ، وحملت سائرها^(١) إلى سوق الوراقين ، فعرضته هناك يوماً كاملاً ، فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه ؛ فعدت به حزيناً وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى !

(١) سائر الشيء : باقيه .

« فلما بلغت باب المنزل ، رأيت في فناءه امرأة تُسائل أهل البيت عنى ، فتبينتها فإذا هى الخادم التى كانت تخدمنى فى منزل عمى .

« فقلت : « فلانة ؟ »

« قالت : « نعم . »

« قلت : « ماذا تريدين ؟ »

« قالت : « لى إليك كلمة فائذن لى . »

« فصعدت معها إلى غرفتى ، فلما خلونا قلت : « هاتى . »

« قالت : « مرت بى ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك فى كل مكان ، فلم أجد من

يُذلنى عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك . »

« ثم انفجرت باكية بصوت عال ؛ فراعنى بكأؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذى أحبه بأس .

« فقلت : « ما بكأوك ؟ »

« قالت : « أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك ؟ »

« قلت : « لا ، فما أخباره ؟ »

« فمدت يدها إلى رداؤها وأخرجت من أضعافه^(١) كتاباً مغلقاً ، فتناولته منها ، ففَضَضْتُ غِلاَفَه ، فإذا هو بخط ابنة عمى ، فقرأت فيه هذه الكلمة التى لا أزال أحفظها حتى الساعة :

« إنك فارقتنى ، ولم تُودِّعنى ، فاغتفرت لك ذلك . فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر ، فلا أغتفر لك ألا تأتى إلئى لتودعنى الوداع الأخير . »

« فألقيت الكتاب من يدى ، وابتدرت الباب مسرعاً ، فتعلقت الخادم

(١) أضعاف الثوب : أتناؤه .

بشوى ، وقالت : « أين تريد يا سيدى ؟ »

« قلت : « إنها مريضة ، ولا بد لى من المصير إليها . »

« فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : « لا تفعل يا سيدى ،

فقد سبقك القضاء إليها . »

« هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكاناً ؛ ثم دارت بى الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها فى مكانى لا أشعر بشئ مما حولى ، فلم أفق إلا بعد حين ؛ ففتحت عيني ، فإذا الليل قد أظلمنى ، وإذا الخادم لا تزال بجانبى تبكى وتتنحب ، فدنوت منها ، وقلت : أيتها المرأة أحق ما تقولين ؟ »

« قالت : « نعم . »

« قلت : « قصى على كل شئ . »

« فأنشأت تقول : « إن ابنة عمك يا سيدى لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك ؛ فقد سألتنى فى اليوم الذى رحلت فيه عن سبب رحيلك ؛ فحدثتها حديث الرسالة التى حملتها إليك من زوجة عمك .

« فلم ترد على أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ؟ إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمرى شيئاً . ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير ولا بشر ، كأنما كانت تعالج فى نفسها ألماً مُمِضاً^(١) . »

« وما هى إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها ، فاستحالت حالها ، غاض ماء جماها ، وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التى كانت لا تفارق ثغرها ، ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبلى^(٢) يوماً حتى

(١) مُمِض : مُؤَلِّم . (٢) أبلى من مرضه : برئ منه .

تنتكس أيامًا ، فراع أمها أمرها ، وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب ، وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها ، فلم تدع طيبًا ولا عائدًا إلا فزعت إليه أمرها ، فما أغنى العائد ولا الطيب ! وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويدًا رويدًا .

« فيينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعرت بها تتحرك في مضجعها ، فدنوت منها ، فأشارت إلي أن آخذ بيدها ففعلت ، فاستوت جالسة ، وقالت : « في أى ساعة نحن من الليل ؟ »

« قلت : « في الهزيع الأخير منه . »

« قالت : « أنت وحدك هنا ؟ »

« قلت : نعم فقد هجع أهل البيت جميعًا . »

« قالت : « ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ »

« فعجبت للكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم ، وقلت : « بلى يا سيدتي أعلم مكانه . »

« وما كنت أعلم شيئًا ، ولكنني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر من خيوط أجلها ، فقالت : « ألا تستطيعين أن تحملي إليه رسالة مني من حيث لا يعلم أحد بشأني ؟ »

« قلت : « لا أحب إلي من ذلك يا سيدتي . »

« فأشارت أن آتيا بمحبرتها ففجتها بها ، فكتبت إليك هذا الكتاب الذي تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك في كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين ؛ علني أراك وأرى من يهدينني إليك ، فلم أظفر بطائل حتى انحدرت الشمس إلى مغربها . فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغت حتى سمعت الناعية ، فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ،

وأن تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها ؛ فحزنت عليها حزن الناكل على وحيدها ، وما رُئي مثل يومها يومٌ كان أكثر باكية وباكياً !

« وكان أكبر ما أهنئ من أمرها ، أن كل ما كانت ترجوه في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، فقاتها ذلك وسقطت دون أمنيته ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ، ولم أزل أتطلب السبيل إليك حتى وجدتك . »

« فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت ، فما انفردت بنفسي حتى شعرت أن سحابة سوداء تهب فوق عيني شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظري كل شيء ، ثم لا أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتك . » وما وصل من حديثه إلى هذا الحد ، حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارفضت^(١) وأن هذه أفلاذها ، فدنوت منه ، وقلت : « ما بك يا سيدتي ؟ » قال لي :

« إني أطلب دمعة واحدة أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها ! »

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليه ، فإذا هو يقول :

« اللهم إنك تعلم أني غريب في هذه الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد ، وأنى فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسي ، وأنى عاجز مستضعف لا أعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة ، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقاً فلم يبق فيه حتى الدماء^(٢) . وإني أسحبيك أن

(١) ارفض الشيء : تفرق وترشش . (٢) الدماء : بقية النفس .

أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنزعها من مكانها وألقى بها في وجهك ساخطاً ناقماً ، فتول أنت أمرها بيدك ، واسترد وديعتك إليك ، وانقلها إلى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك .
ثم أمسك رأسه بيده ، كأنما يحاول أن يجسه عن الفرار ، وقال بصوت ضعيف خافت :

« أشعر برأسي يحترق احتراقاً وقلبي يذوب ذوباً ، لا أحسبني باقياً على هذا ، فهل تعدني أن تدفني معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضاءه ؟ »

قلت : « نعم ، وأسأل الله لك السلامة . »

قال : « الآن أموت طيب النفس عن كل شيء . »

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها !

لقد هون وجدى على هذا البائس المسكين ، أنى استطعت إمضاء وصيته كما أراد ، فسعيت في دفنه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعت فيها أن يوافيها ، فعجز عن أن يلي نداءها حياً فلَبَّاهَا ميتاً .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذاك الصديقان الوفيان ، اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .

الشهداء

« مترجمة »

لم يبق لها بعد موت زوجها وأبويها إلا ولد صغير يؤنسها ، وأخ شفيق يحنو عليها ، وصبابة من المال ترشف ^(١) الرزق منها ترشفاً مصانعة للدهر فيها .
أما الصبابة فقد نضبت ، وأما الأخ فقد ضمه الدهر ضمة ذهب بماله وبجميع ما تملك يده ؛ فهاجر هجرة بعيدة لا تعرف مصيره فيها ، فأصبحت من بعده لا تملك مالاً ، ولا عضداً .

لقد لقيت هذه المرأة المسكينة من الشقاء في طلب العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، فخاطت الملابس حتى عَشِيَّ ^(٢) بصرها ، وغسلت الثياب حتى ييست أطرافها . ودخلت المصانع حتى كلت ، وخدمت في المنازل حتى ذلت ، ولكنها استطاعت أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها .

ما كان لمثلها أن يحيا على مثل ذلك ، ولكن الله كان أرحم بها من أن يسلبها السعادة ويسلبها العزاء عنها معاً . فقد كانت إذا دجا ليل الحوادث حولها ، وأظلمت الحياة أمام عينيها ، رأت في الأفق البعيد ثلاثة أشعة تنبعث من سماء الرحمة الإلهية حتى تتلاقى في فؤادها فتملأه عزاء وصبراً ؛ شعاع الأنس بولدها ، وشعاع الرجاء في أخيها ، وشعاع السرور بما وفقت إليه من صيانة عرضها .

(١) ترشف الإبل الماء : أخذته قليلاً قليلاً . (٢) عَشِيَّ بصره : ضعف .

دارت الأيام دورتها ؛ فاكتهلت الأم ، وشب الولد ، وانتقل هم قلبها إلى قلبه وكان لا بد له أن يعيش ، وأن يحسن إلى تلك التي طالما أحسنت إليه ، فمشى يتصفح وجوه الرزق وجها وجها ، ويرد مناهله مناهلاً مناهلاً ، حتى وقف به حظه على مهنة الرسم فأنس بها ، وما زال يعطيها من نفسه وجده حتى مهر فيها .

والمهارة لا تدل على صاحبها وحدها ، بل هو الذى يدل عليها بحيلته ورفقه ، وما كان الفتى يملك أداة ذلك ، ولا يعرف السبيل إليه ، فاستمر خاملاً مغموراً لا تدر له مهنته إلا القطرة بعد القطرة في الفينة بعد الفينة^(١) ، فلم يستطع أن يسعد أمه ، ولكنه استطاع أن يسد خلتها فقنعت منه بذلك ولزمت منزلها ، ووجدت برد الراحة في صدرها .

إلا أنها كانت إذا ذكرت ذلك الغائب النائي عنها ، حنت إليه حنين النيب^(٢) إلى فصالها^(٣) وأحزانها أنها لم تره منذ خمسة عشر عامًا ، ولم تر منه كتاباً منذ عشرة أعوام حتى اليوم . فلا تجد لها بداً كلما هاجها الوجد إليه إلا أن تلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد الذى يفرغ إليه جميع البائسين والمخزونين في بأسائهم وضرائهم ؛ خلوتها ودموعها ، فتبكي ما شاء الله أن تفعل ، ثم تخرج لاستقبال ولدها باشة باسمه ، كأن لم تكن باكية قبل ذلك !

دخل عليها ولدها يوماً في خلوتها ، فرآها تبكي ورأى في يدها صورة فتبينها ، فإذا هي صورة خاله ، فألم بسريرة نفسها ، وأمسك بين أهداب عينيه دمعاً مترقرقة ما تكاد تتماسك فمشى إليها حتى وضع يده على عاتقها ، وقال :

(١) الفينة : الحين . (٢) النيب : جمع ناب ، وهي الناقة المُسَيِّة .

(٣) الفصال : جَمْعُ فصيل ، وهو ولد الناقة أو البقرة إذا فُصِلَ عن أمه .

« رفهي عن نفسك يا أمه فستعلمين خبر غائبك عما قليل . »
فقطلت وجهها وأضاء ، وقالت : « وكيف السبيل إلى ذلك ؟ »
قال : « قد علمت أن معرضاً سيقام للرسم في واشنطن حاضرة أمريكا بعد بضعة شهور ، وأنهم قدروا له جوائز مختلفة صغرى وكبرى ، وقد وعدنى بعض أصدقائى أن يساعدنى على الشخوص إليه ، علنى أستطيع أن أنال ما أقيم به وجهى وأنقذ به نفسى ونفسك من هذا الشقاء ، وهنالك أفتش عن غائبك حتى أجده أو أجده منقطع أثره . »

فاستسر بشرها الذى كان متلاًكاً ، وقالت : « لا تفعل يا بنى فما أنا بشقية ما رأيتك بجائيبى ، وما أنت بشقى ما قنعت بما قسم الله لك ، ولكن فعلت ، لا تكونن امرأة على وجه الأرض أعظم منى لوعةً ولا أشقى ، ولكن بكيت لفراق أخى مرة فسأبكى لفراقك ألف مرة ، وإنى كلما ذكرته وجدت في وجهك العزاء عنه ، فمن لى بالعزاء عنكما إن فقدت وجهيكما معاً ؟ »
فما زال يروضها ويمسحها ويمنيها في رحلته الأمانى العذاب حتى أسلست وهدأت وأسلمت إلى الله أمرها .

وما هى إلا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته فإذا الأم وحيدة في فرنسا لا مؤنس لها ، وإذا الولد غريب في أمريكا لا يعرف له سنداً ، ولا عضداً .

وصل الفتى إلى معرض الرسم فعرض رسمه هناك ، وكان يمثل فيه موقف للوداع الذى جرى بينه وبين أمه على شاطئ البحر يوم رحيله وكان موقفاً محزوناً فأحسن تمثيله ، فأعجب القوم بجماله ، وأثر في نفوسهم منظره ؛ فقضوا له بالجائزة التى كان يمتنى نفسه بها . فما حصلت في يده حتى خيل إليه أنه أسعد أهل الأرض طراً ، وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيه عالم الوجود ،

وأنه ما ذاق قبل الساعة مرارة العيش ، ولا رأى صورة الشقاء !
وكذلك يعيث الدهر بالإنسان ما يعيث ، ويذيقه ما يذيقه من صنوف
الشقاء وألوان الآلام ، حتى إذا علم أنه قد أوحشه وأرابه^(١) وملاً قلبه غيظاً
وحنقاً، أطلع له في تلك السماء المظلمة المذلِّهَمَّةِ بارقة واحدة من بوارق الأمل
الكاذب فاسترده بها إلى حظيرته راضياً مغتبطاً كما تقاد السائمة البلهاء بأعواد
الكلأ إلى مصرعها ، فما أسعد الدهر بالإنسان وما أشقى الإنسان به !

أرسل الفتى إلى أمه بعض المال واستبقى لنفسه بعضاً ، وكتب إليها أنه لن
يرح هذه الأرض حتى يفنى لها بما عاهدها عليه ، ومشى في طريقه يفتش عن
خاله في أنحاء البلاد ويسائل عنه كل من لقيه من القاطنين والطارئين^(٢) حتى
حدثه بعضهم أن أحزن عهدهم به رحلة رحلها عنهم من بضع سنوات إلى بعض
الجزر الجنوبية في التفتيش عن معدن نحاس هناك ثم لم يعد بعد ذلك .

فمشى في الطريق التي علم أنه سلكها حتى وصل إلى جزيرة موحشة
مقفرة ، وكانت لا تزال تغطي سماء تلك البلاد بقية من ظلمات العصور
الأولى . فمر بقبيلة من قبائل الزنج نازلة هناك وراء بعض الجبال المنقطعة ، فما
رأوه حتى هاجت في صدورهم أحقاد تلك العداوة اللونية التي لا يزال
يضمورها هؤلاء القوم لكل شيء أبيض ، حتى للشمس المشرقة ، والكواكب
الزاهرة ، فداروا به دورة سقط من بعدها أسيراً في أيديهم ، فاحتملوه حتى
وصلوا به إلى ديارهم فاحتبسوه هناك في نفق تحت الأرض كانوا يسمونه
« سجن الانتقام » .

هنالك علم أن تلك البارقة التي لاحت له في سماء السعادة من الأمل يوم

(١) أرابه : شككته وجعله يتراب . (٢) الطارئون : المهاجرون .

المعرض، إنما هي خدعة من خدع الدهر وأكذوبة من أكاذيبه ، وأن ما كان
يقدره لنفسه من سعادة وهناء في مستقبل أيامه قد ذهب بذهاب أمس النابر ،
وأصبح صحيفة بالية في كتاب الدهر الغابر .

ولقد كان في استطاعته أن يخلد للنازلة التي نزلت به ويستمسك لها لو أنه
استقل بحملها ، ولكن الذي آده^(١) وأثقله ، أن هناك إنساناً آخر كريماً عليه
يقاسمه إياها ، فقد أصبح يحمل مصيبته ومصيبة أمه فيه على عاتق واحد .

نزلوا به إلى الحبس وقادوه إلى سلسلة غليظة الحلقات فسلكوه فيها ثم أغلقوا
الباب من دونه وتركوه وشأنه ، فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيه فلم ير أمامه
شيئاً . فلم يعلم : هل كف بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فحجبت عن
ناظره كل شيء حتى نفسها ؟ فلم يزل في حيرته حتى انقضى الليل ، فأنحدر
إليه من ثقب صغير في جائط الحبس خيط أبيض دقيق من شعاع الشمس حتى
استقر بين يديه، فأنس به أمن الغريب بالغريب، وشكر للشمس رسولها الذي
أرسلته إليه ليؤنسه في وحدته . واستمر بصره عالماً به لا يفارقه أينما سار وحيثما
انتقل حتى رآه يتقبض شيئاً فشيئاً ، ويتراجع قليلاً قليلاً ، ثم علا إلى ثقبه الذي
أنحدر منه ، ثم طار إلى سمائه التي هبط منها . فحزن لفراقه حزن العشير لفراق
عشيرته ودار بعينه حول نفسه فإذا قطع سوداء مظلمة تتدجج وتتكاثف من
حوله ويمس بعضها في أحشاء بعض .

وإذا هو نفسه قطعة من تلك القطع هائمة بينها هيمان الروح الخائر في
ظلمات القبور فما كاد يعرف مكانه منها ، فمشى في ذلك المعترك المائج يفتش
عن نفسه ويتلمسها بيده تلمساً ، حتى سمع صلصلة السلسلة الملتفة على قدميه

(١) آده الأمر أودًا : بلغ منه مجهوده .

فوجدتها وكان قد أجهده المسير فتساقط على نفسه باكياً منتحباً .
وكذلك انقطع هذا المسكين عن العالم كله خيره وشره ، ولم يبق بينه وبينه
من صلة إلا ذلك الشعاع الأبيض الذي يزوره كل صباح ، وذلك السجان
الأسود الذي يطرقه كل مساء .

وما مرت به على حاله تلك سنة واحدة حتى نسي نفسه ، ونسى أمه
ونسى العالم الذي كان يعيش فيه ، والعالم الذي انتقل إليه ، ونسى الليل
والنهار والظلمة والنور ، والسعادة والشقاء . وأصبح في منزلة بين منزلتي
الحياة والموت فلا يفرح ولا يتألم ، ولا يذكر الماضي ، ولا يرجو المستقبل .
ولا يعلم هل هو حجر بين تلك الأحجار أو قطعة بين قطع الظلام ، أو جسد
يتحرك ، أو خيال يسرى ، أو وهم من الأوهام أو عدم من الأعدام .

مرت على تلك الأم المسكينة بضعة أعوام لا ترى ولدها ولا تجد من يدها
عليه فأصبح من يراها في طريقها ، يرى عجوزاً حذباء والهة
متسليبة^(١) مذهوباً بها^(٢) قد توكتأت على عصا ما تزال تضطرب في يدها ،
وأسبلت فوق جسمها الناحل المحقوف^(٣) أهداماً^(٤) خلقاناً يحسبها الناظر إليها
لكثرة ما نالت يد البلى منها أهداباً متلاصقة أو يَزَقاً^(٥) متطائرة ، تقف صدر
النهار بأبواب المعابد والكنائس ، تسأل الله أن يرحمها ، والناس أن
يطعموها .

حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء أخذت سَمَتها^(٦) إلى شاطئ البحر

(١) المتسليبة : التي أخذت على زوجها أو غيره . (٢) المذهوب به : المسلوب عقله ،
ويقال أين يذهب بك ؟ أي بعقلك . (٣) المحقوف : المتعوج .
(٤) الأهدام : جمع هدم وهو التوب البالي المترقع .
(٥) اليزق : قطع الثوب للمزقة . (٦) السمت : الطريق .

وجلست فوق بعض صخوره تناجى أمواجه ورماله ، وترقب أفقه البعيد كما
يرقب المنجم كوكبه في أفق السماء . فإذا سرت إليها نسمة وجدت ريح ولدها
فيها . وإذا أقبلت عليها موجة ظنت أنها رسول منه إليها . وإذا تراءت لها سفينة
ماخرة على سطح الماء حسبتها السفينة التي تحمله . فلا يزال بصرها عالقاً بها
لا يفارقها حتى ترسو على الشاطئ فتقف في طريق ركبائها ، تتصفح الوجوه ،
وتتفرس الشمائل ، وتهتف باسم ولدها صارخة معولة ، وتقول :

« عباد الله ، من يدلني على ولدي ، أو ينشده لي في معالم الأرض
ومجاهلها ؛ فقد أضلته منذ عهد بعيد ، فحارني الدهر من بعده ، فلا أنا سالية
عنه ولا واجدة إليه سبيلاً ، فاحتسبوا يداً عند الله وحدثوني عنه هل عاد
معكم ، أو تخلف عنكم ليأتني على إثركم ، أو انقطع الدهر به فلا أمل فيه بعد
اليوم ؟ » فلا يلتفت إليها أحد ولا يفهم أحد ما تقول ، وربما لمحها بعض الناس
فظنها امرأة ملتائة^(١) فرثي لها ، أو سائلة فتصدق عليها !

ولا يزال هذا شأنها في موقفها هذا حتى ترى الأمهات والأخوات
والفتيات ، قد عدن بأولادهن وإخوانهن وآبائهن إلى منازلهن ولم يبق على
شاطئ البحر من غاد ولا راتح سواها . فتناول عصاها وتعود أدراجها إلى بيتها
فتأخذ مجلسها من حافة قبر كانت قد احتفرته بيدها في أرض قاعتها وتوهمته
مدفناً لولدها فتظل تبكي وتقول :

« في أي بطن من بطون الأرض مضجعك يا بني ، وتحت أي نجم من نجوم
السماء مصرعك ، وفي أي قاع من قيعان البحر مثراك ، وفي أي جوف من
أجواف الوحوش الضاربة مأواك ؟ »

(١) التات : جن واختلط .

والقيد ووطائه . ثم طار بجياله إلى ما وراء البحار فذكر أمه وشقاءها من بعده ، وحبها ، وبأسها من لقائه ؛ فذرفت عيناه دموعاً كانت هي أول دموعه أرسلها من جفنيه من تاريخ شقائه . وما زال يرسل المبرة إثر المبرة ، لا يهبأ ولا يستيقن ، حتى مضى شطر من الليل وهذا الناس جميعاً في مضاجعهم فأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب بجياله إلى حيث شاء أن يذهب .

فأبانه لكذلك وقد رثقت في عينيه سيرة من النوم ، إذ شعر بيد تلمس كتفيه فرفع رأسه ، فإذا شيخ أبيض قائم فوق رأسه ، فنجح إليه أن ملكاً نورانياً نزل إليه من علياء السماء ليقتده من شقائه ؛ فتنبهه فإذا فتاة جميلة بيضاء ، ما التفت الأزر^(١) على مثلها حسناً وبهاء ، تمشي في بياضها سمرة رقيقة كسمرة السحاب الأزهر^(٢) الذي يخالط وجه الشمس في ضحوة النهار ، فسأها :
« من أنت ؟ »

قالت : « أنا فتاة من فتيات هذا الحي ، وقد أملت بشيء من أمرك ، فعلمت أنك شقي فرحمتك مما أنت فيه ؛ فجتيتك أطلق وناقك لتذهب حيث تشاء ، فلا مثوبة يقدمها المرء بين يدي ربه يوم جزائه أفضل من مواساة البائس وتفرج كربة المكروب . »

فعمجب لرغبة بيضاء ورثية تعبد الله ، وبربرية تحمل بين جنينها قلباً يعطف على البرساء والنكوتين . وقال في نفسه : « ما لهذه الفتاة بده من شأن ، وورد عليه من أمرها ما ذهب بلبه ، وملك عليه نفسه وهواه . وأنساه كل شأن في الحياة إلا شأنها فلبث صامئاً واجماً لا يتنطق . »
وقال لها : « اذهبي لتعائلك يا سيدق فإنتي لا أريد الحجاة . »

(٢) الأزهر : الأزرق .

(١) الأزر : جمع أزار .

و لو يعلم الطير الذي يرق جيتك ، أو الوحش الذي ولغ دمك ، أو القبر الذي ضمك إلى أحشائه ، أو البحر الذي طواك في جوفه ، أن وراءك أمماً مسكية تبكي عليك من بعدك لرحمك من أجل^٢ ؟

و عد إلى يا بني فقيراً أو مقملاً أو كفيفاً ؛ فحسبي منك أن أراك بجاني في الساعة التي أفارق فيها هذه الحياة ؛ لأتباك قبلة الوداع وأعهد إليك بزيارة مضجعي مطلع كل شمس ومغرباً لتخف برؤوتك عنى ضمة القبر ، وتستتر برجحك الرضاء ظلماته الحلاكة !

و ما أسمد الأمهات اللواتي يسبقن أولادهن إلى القبور ، وما أشقى الأمهات اللواتي يسبقهن أولادهن إليها ، وأشقى منهن تلك الأم المسكينة التي تدب إلى الموت ديباً وهي لا تعلم : هل تركت ولدها وراءها ، أو أنها استجده أمامها ؟

وهكذا كان شأنها صباحها ومساءها ، فلم تزل تبكي ولدها بكاء يعقوب ولده ، حتى ذهب بصورها ذهاب بعصره ، ولكنها لم تستطع عن يوسفها صبراً .

دخل السجنان على الفتى عشية ليلة في محبسه ، فاقترب منه ومد يده إلى سلسلته البنية في الجدار فانتزعها من مكانها ، فلم يقل شيئاً ولم يسأل نفسه هل هي ساعة نجاة أو ساعة حكامه . ثم قاده إلى خارج الخيس حتى وصل به إلى صحرة جاثمة على مقربة من مجتمع القبيلة فنشد سلسلته إليها وتركه مكانه ومضى . ففتح عينيه فرأى مكاناً غير مكانه ، ومنظراً غير منظره ، وسماه وأرضاً غير سماه وأرضه ، فبدأ شموره يعود إليه شيئاً فشيئاً ، حتى استفاق فذكر ما كان فيه ورأى ما صار إليه .

هنالك تذكر السعادة والشقاء ، والغربة والوطن ، والسجن وظلمته ،

قال : و وما يمنك منه ؟

فظفرت إليه نظرة داممة ، وقالت : و أخاف أن أجهك !

قال : و لم تخافين ؟

قالت : و لا أعلم .

قال : و أنا لا أسألك عما تكمنين في صدرك من الأسرار ، ولكي

أسألك أن تتركيني وشأني في يد القدر يفعل لي ما يشاء ، فقد كنت أخاف

الموت قبل أن أراك . أما اليوم فحسبي عزاء عما ألقاه من غمصه والآمه

نظرة رحمة تلقيتها على في مصرعي ، ودمعة حزن تسكبها من بعدي على

تربتي .

فما استقبلته إلا بدموعها تنحدر على خديها كالقمد وهي سيلك فانتثر ، ثم

مدت يدها إلى قيده فمالجته حتى انصدح ، وقالت : و إني ذاهبة ملك وليقض

الله في وفك قضاءه .

مسيما يطوي بيان القفسار ، ويسعيران الأنهار ويضحجان^(١) المسرة

ويخصران^(٢) الأخرى ، ويردان آجن^(٣) المياه وصفوها ويقفانان يابس النار

ووطبها ، فإذا لاح لهما ظل شجرة أو شاطئ غدير أو سفح جبل أوبا إليه

فاستراحا بجانبه قليلا ثم عادا إلى شأنهما .

وكانت لا تزال تنثني وجه الفتاة مذ فارقت موطنها سحابة سوداء من

الحرن ما تكاد تنفثع عنه . وكانا إذا نزلا منزلاً وأخذتا مضمجهما من ترابه

وأحجاره ، نهضت من موقدها بعد هدأة من الليل وانتحيت ناحية من حيث

تظن أنه لا يشمر بمكانها ، ومدت يدها إلى صدرها فتناولت صليبا صغيرا

(١) ضجى : برز للشمس .

(٢) الأجن من الماء : الذي تنور طممه ولونه .

فعلمت أنها ثورة من ثورات الياأس ، فذنت منه ووضعت يدها على عاتقه ،

وقالت :

و لا تجعل لليأس إلى قلبك أيها الفتي سيلا ، و اخبج بجياتك من يد الموت

فليس بينك وبينه إن بقيت هنا إلا أن ينحدر عن وجهك قناع هذا الليل ، فإذا

أنت فإذ طائرة مع شفرات السيوف ، فلا تفجع نفسك في نفسك ،

و لا تفجع هذه المسكينة الواقعة بين يديك فإن شديدا على جد أن أراك بعد

قليل ذبيحة في يد اللمايح ، أو مضغعة في فم الآكل .

قال : و إنك لا تستطيعين نجاق .

قالت : و لا أفهم ما تقول ، فأنتي ما جهتك إلا وأنا عالة ماذا أصنع .

قال : و قد كنت قبل اليوم موقفا بوثاق واحد فأصبحت موقفا بوثاقين ،

فإن استطعت أن تحلى وثاق قديم فأناك لا تستطيعين أن تحلى وثاق قلبي .

فألت بسيرة نفسه فرفعت وجهها إلى السماء ولبغت شاحصمة إليها

ساعة ، فرفع رأسه إليها ولبث شاحصا إلى وجهها نظر المصور الماهر إلى تخاله

البديع ، حتى شمر بدمعة حارة قد سقطت من جفنها على وجهه ، فجرت في

ججري الدموع من خده فانحدرت من جفنه دمة مثلها فالتقت بدمعتها

فامتزجتا معا .

فمد يده إلى رداها فأجذبها إليه ، وقال : و قد طال وقوفك يا سيدتي

فاجلسي بجانبني نتحدث قليلا .

فجلست على مقربة منه ، فقال لها : و إن امتزاج دمعي بدمك في هذه

الساعة قد دلني على أننا لن نفرق بعد اليوم أحياء أو أمواتا ، فإن كنت تريدني

ل النجاة فأنتي لا أخبو إلا بك .

قالت : و لبتني أستطيع ذلك يا سيدتي .

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

... (١)

فجلس بجانبها فأنشأت تحدّثه ، وتقول :

« أنا فتاة غريبة مثلك عن هذه الديار لا أعرف من ساكنيها غير نفسي ، ولا من أرضها غير قبر قد زال اليوم رسمه وبلى مع الأيام دفينه ، فقد ولدتنى أمى على فراش رجل أبيض وفد من دياركم منذ عشرين عامًا فالتقى بها عند مروره بجيها فأحبها وأحبته ، ثم فرت معه إلى ما وراء هذه الصحراء ، فدانت بدينه ، ثم تزوجها فولداني وعشنا جميعًا من الدهر عيش السعداء الآمنين .

« وكان رجال قبيلة أمى لا يزالون يتطلبون السبيل إلينا حتى سقطوا علينا سقوط القضاء في جنح ليلة من ليالى الظلام ، فاقتادونا جميعًا إلى أرضهم . وكنت إذ ذاك لم أسلخ العاشرة من عمري ، فقتلوا أبى أمامى وأمام أمى قتلة لا يزال منظرها حاضرًا بين يدى حتى الساعة لا يفارقنى . فحزنت أمى عليه حزنا شديدًا ما زال يدنو بها من القبر شيئًا فشيئًا حتى جاءت ساعتها ؛ فحضر موتها رسول من رسل المسيح كان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين ، فدعتنى إليها أمامه ، وقالت لى : « يا بنية إن أمى قد ولدتنى للشقاء فى هذا العالم ، وأحسب أبى قد ولدتك له كذلك فحسبنا ذلك ، ولا تكونى سببًا فى شقاء أحد من بعدك وانذرى نفسك للعدراء نذرًا لا يحله إلا الموت . » فأذعنت لأمرها وأشهدت الكاهن على نذرى فتلاً لأوجهها بشرًا وسرورًا ، ثم نظرت نظرة فى السماء وقالت : « ها أنذا على إثرك يارافائيل ، ثم فاضت روحها . »

فاضطرب الفتى عند سماع هذا الاسم وقال لها : « هل تعرفين وطن أبىك وأسرته ؟ »

قالت : « نعم . »

وسمتهما له فاستطير فرحًا وسرورًا ، وقال : « أحمدك اللهم فقد وجدت

ضالتي . »

فعمجت لأمره ، وقالت : « وأى ضالة تريد ؟ »

قال : « أتذكرين ليلة اللقاء إذ امتزجت دمعتانا معًا فقلت لك إنها صلة بينى وبينك لا يقطعها إلا الموت ؟ »

قالت : « نعم . »

قال : « قد كنت أمتُّ^(١) إليك قبل اليوم بجرمة الحب وحدها ، فأصبحت أمت إليك بجرمة الحب والقربى ، فأنت اليوم حبيبتي وابنة خالى معا . »

فقالت بصوت خافت : « أحمد الله فقد وجدت لى فى هذه الساعة العصبية أختا . »

وأخذ جسمها يضطرب اضطرابًا شديدًا ، ووجهها يربد^(٢) شيئًا فشيئًا ، فذعر الفتى وارتاع وحنأ عليها وقال : « ماذا أرى ؟ »

قالت : « لا ترع ، فأصغ إلي ؛ فإن لحديشى بقية لم تسمعها . إننى منذ حفظت وصية أمى ووهبت العذراء نفسى ، كان لا بد لى أن أتخذ لى ملجأ أفرع إليه فى اليوم الذى أخاف أن يغلبنى فيه هواى على دينى ، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معى حتى جاء اليوم الذى خفته فلجأت إليها فنجوت وأستودعك الله . »

فنظر الفتى حيث أشارت ، فرأى قارورة مطروحة وراءها فتناولها ، فإذا هى فارغة إلا بقية صفراء فى قرارتها ففهم كل شئ .

هنالك شعر كأن شعبة من شعاب قلبه قد هوت بين أضلاعه وكان طائرًا

(١) مَتَّ إِلَيْهِ : اِتَّصَلَ بِهِ . (٢) يَرْبُدُّ : يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ .

قد نفّض جناحيه ، ثم طار عن رأسه إلى جو السماء فصعق في مكانه صعقة لم يشعر بعدها بشيء مما حوله . فلم يستفق إلا بعد حين ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة باردة ، وإذا الكاهن صاحب الكوخ واقفاً أمامه يحمل على كفه طعاماً كان قد جاء به إليهما ويقلب نظره حائرًا لا يفهم مما يرى شيئاً . فوثب الفتى إليه حتى صار أمامه وجهًا لوجه ونظر إليه نظرةً شزراء كتلك النظرة التي يلقيها الموتور على وجه واتره ، وكأن قد خولط في عقله فأخذ يهذى ، ويقول :

« أتدرى أيها الرجل لِمَ ماتت هذه الفتاة ؟ لأنها وهبت نفسها للعنراء ، ثم عرض لها الحب في طريقها فوقفت حائرة بين قلبها ودينها فلم تجد لها سبيلاً إلى الخلاص إلا سبيل الانتحار فانتحرت . تلك جرائمكم يا رجال الأديان التي تقترفونها على وجه الأرض . ما كفاكم أن جعلتم أمر الزواج في أيديكم تحلون منه ما تحلون ، وتربطون ما تربطون ، حتى قضيتم بتحريمه قضاء مبرماً لا يقبل أخذًا ولا ردًا .

« إن الذي خلقنا وبث أرواحنا في أجسامنا هو الذي خلق لنا هذه القلوب وخلق لنا فيها الحب ، فهو يأمرنا أن نحب ، وأن نعيش في هذا العالم سعداء هانئين ، فما شأنكم والدخول بين المرء وربّه ، والمرء وقلبه ؟

« إن الله بعيد في علياء سمائه عن أن تتناوله أنظارنا ، وتتصل به حواسنا ، ولا سبيل لنا أن نراه إلا في جمال مصنوعاته وبدائع آياته ، فلا بد لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه .

« إن كنتم تريدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حب ، فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفاقة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون ؛ فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ما دامت لنا أفئدة خفاقة .

« أتظنون أيها القوم أننا ما خلقنا في هذه الدنيا إلا لننتقل فيها من ظلمة الرّجيم إلى ظلمة الدير ، ومن ظلمة الدير إلى ظلمة القبر ؟ بمست الحياة حياتنا إذن وبمس الخلق خلقنا . إننا لا نملك في هذه الدنيا سعادة نحيا بها غير سعادة الحب ، ولا نعرف لنا ملجأً نلجأ إليه من هموم العيش وأرزائه سواها ، ففتشوا لنا عن سعادة غيرها قبل أن تطلبوا منا أن نتنازل لكم عنها .

« هذه الطيور التي تغرد في أفنائها إنما تغرد بنغمات الحب ، وهذا النسيم الذي يتردد في أجوائه إنما يحمل في أعطافه رسائل الحب ، وهذه الكواكب في سمائها ، والشموس في أفلاكها ، والأزهار في رياضها ، والأعشاب في مروجها والسوايم في مراتعها ، والسوارب في أجحارها .. إنما تعيش جميعاً بنعمة الحب . فمتى كان الحيوان الأعجم والجماد الصامت ، أيها القساة المستبدون ، أرفع شأنًا من الإنسان الناطق وأحق منه بنعمة الحب والحياة ؟! « فهنيئًا لها جميعها أنها لا تعقل عنكم ما تقولون ، ولا تسمع منكم ما تنطقون ؛ فقد نجت بذلك من شر عظيم ، وشقاء مقيم .

« إننا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم ، ولا نعرف لكم بسطان على أجسامنا أو أرواحنا ، ولا نريد أن نرى وجوهكم أو نسمع أصواتكم ، فتواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم أو مغاوركم ؛ فإننا لا نستطيع أن نتبعكم إليها ، ولا أن نعيش معكم فيها .

« إن وراءنا نساء ضعاف القلوب ورجالاً ضعاف العقول ، ونحن نخافكم عليهم أن يمتد شركم إليهم ؛ فلا بد لنا أن نقف في وجوهكم ونعترض سبيلكم لنذودكم عنهم ؛ حتى لا تصلوا إليهم ففسدوا عليهم البقية الباقية من قلوبهم وعقولهم .

« إننا لا نعبد إلا الله وحده ، ولا نشرك به غيره ، وفي استطاعتنا أن نعرف

الطريق إليه وحدنا بدون دليل يدلنا عليه ، فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم .
 « كتاب الكون يغنيننا عن كتابكم ، وآيات الله تغنيننا عن آياتكم ،
 وأناشيد الطبيعة وندماتها تغنيننا عن أناشيدكم وندماتكم . هذا الجمال المترقرق
 في سماء الكون وأرضه ، وناطقه وصامته ومتحركه وساكنه ، وإنما هو مرآة نقية
 صافية ننظر فيها فنرى وجه الله الكريم مشرقاً متلألئاً فنحترق بين يديه ساجدين ،
 ثم نصغى إليه لنستمع وحيه فنسمعه يقول لنا : أيها الناس إنما خلق الجمال متعة
 لكم فتمتعوا به ، وإنما خلقتكم حياة للجمال فاحيوه .

« ذلك أمر الله الذى نسمعه ولا نسمع أمراً سواه . »

وما إن وصل فى حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه ، ووهنت عزيمته ،
 وارتعدت مفاصله ، فسقط فى مكانه يزفر زفيراً شديداً ، وبين أنيتاً محزناً ،
 فاقترب منه الشيخ ووضع يده على رأسه ، وقال له :

« ارفق بنفسك يا بنى ؛ فما أنت بأول ثاكل على وجه الأرض ،
 ولا فقيدك بأول راحل عنها ، وإن فى رحمة الله ورضوانه عزاء للصابرين
 وجزاء للمحسنين . »

فأهوى الفتى على يده وأخذ يقبلها ، ويقول : « اغفر لى ذنبي يا أبت ،
 فقد كنت من الظالمين . »

قال : « غفر الله لك يا بنى ؛ فما دون رحمة الله باب موصد ولا رتاج
 معترض . »

قال له : « يا أبت إن هذه الفتاة غريبة عن هذه الأرض ، وليس لها فيها أحد
 سوى ، وقد ماتت من أجل وفى سبيلى ، فهل تأذن لى أن أدنو منها لأقبلها قبلة
 الوداع فى آخر ساعة من ساعاتها على وجه الأرض ؟ »

قال : « افعل يا بنى . »

فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانها فضمها إليه ضمة شديدة وأهوى بفمه
 على فمها ، فقبلها لأول مرة فى حياته قبلة فاضت روحه فيها .

فى الساعة التى دفن فيها هذان الشهيدان تحت تلك الشجرة المورقة على
 شاطئ ذلك النهر الجارى ، مرت بكوخ العجوز امرأة من جاراتها كانت
 تعتادها الزيارة من حين إلى حين . فنظرت إلى مكانها الذى اعتادت أن تتخذه
 من حافة ذلك القبر المفتوح فرأته خالياً ، فأشرفت على الحفرة فوجدتها متردية
 فيها معفرة بترابها لا حراك بها ، فملأت بالتراب الذى كان مجتمعاً حول الحفرة
 تلك الأشبار الخمسة التى هى مسافة ما بين الحياة والموت ، ثم أسبلت فوق
 تربتها دمعة كانت هى كل نصيبها من الدنيا !

تصوراته وغبابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله ، حتى جاءني ذات ليلة
بداهية الدواهي ومصيبة المصائب ، فكانت آخر عهدي به .
دخلت عليه فرأيتُه واجماً مكتئباً فحييته فأوماً إليّ بالتحية إيماءً ، فسألته
ما باله ، فقال :

« ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص
منه ، ولا أدرى مصير أمرى فيه . »
قلت : « وأى امرأة تريد ؟ »

قال : « تلك التي يسميها الناس زوجتي ، وأسميها الصخرة العاتية في طريق
مطالبى وآمالي . »

قلت : « إنك كثير الآمال يا سيدي فعن أى آمالك تتحدث ؟ »
قال : « ليس لي في الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عيني ثم أفتحهما
فلا أرى برقاً على وجه امرأة في هذا البلد ! »
قلت : « ذلك ما لا تملكه ولا رأى لك فيه . »

قال : « إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب رأياً ، ويتمنون في أمره ما
أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسايتهم وإبرازهن إلى الرجال
بجالسهم كما يجلس بعضهم إلى بعض إلا العجز والضعف والهية التي لا تزال
تلم بنفس الشرق كلما حاول الإقدام على أمر جديد . »

« فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي^(١) القديم الذي وقف سداً
دون سعادة الأمة وارتقايتها دهرًا طويلاً ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد
غيري من دعاة الحرية وأشياعها . »

(١) العادي القديم : نسبة إلى قبيلة عاد .

الحجاب

« موضوعة »

ذهب فلان إلى أوروبا وما ننكر من أمره شيئاً ، فلبث فيها بضع سنين . ثم
عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة
الملساء تحت الليلة الماطرة . وذهب بقلب نقى ظاهر يأنس بالغو ويستريح إلى
العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخبط على الأرض وساكنها ،
والنقمة على السماء وخالقها . وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس
فوقها ، وعاد بنفس ذهابة نزعاً لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقى نظرة واحدة
على ما تحتها . وذهب برأس مملوءة حكماً ورأياً ، وعاد برأس كراس التمثال
المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتردد . وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من
دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من
الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على
أجسامهم إفراغاً ، لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير
فرتها في أجواء السماء ، وأن مكان المدينة الغربية من نفوسهم مكان الوجه
من المرأة ؛ إذا انحرف عنها زال خيالها منها .

فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولبسته على علته وفاءً بعهدته السابق
ورجاء لغده المنتظر ، محتملاً في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد

« فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته ، وخيل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام ، وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك حياءً منهن وخجلاً . »
 « ولا خجل هناك ولا حياء ، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتين الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أمنيته ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجاً ينتهي بإحدى الحسنين إما بكسره أو بشفائه . »

فورد علني من حديثه ما ملأ نفسي همًا وحزنًا ونظرت إليه نظرة الراحم الرائي ، وقلت :

« أعالم أنت أيها الصديق ما تقول ؟ »

قال : « نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها . واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعًا حيث وقعت . »

قلت : « هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يومًا من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم ، فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكة ؟ »

قال : « ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد ؟ »

قلت : « أتريد أن أقول لك إنني أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك . »

قال : « إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع . »

فتداخلتني ما لم أملك نفسي معه ، وقلت له : « تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومدارككم فيفسدها عليكم ؛ فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها ، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها . والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافيًا رائقًا حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر . والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة . »

قال : « أنتكر وجود العفة بين الناس ؟ »

قلت : « لا أنكرها لأنني أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين ؛ ولكنني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب ، والمرأة الحاذقة المترفة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه . »

« في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم ؟ »

« أفي جو المتعلمين ، وفيهم من سئل مرة : لِمَ لَمْ يتزوج ؟ فأجاب : نساء البلد جميعًا نساؤي ؟ ! »

« أم في جو الطلبة ، وفيهم من يتوارى عن أعين خلانته وأترابه حياءً وخجلاً إن خلت محفظته يومًا من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته ، أو أقفرت من رسائل الحب والغرام ؟ »

« أم في جو الرعاع والغوغاء ، وكثير منهم يدخل البيت خادمًا ذليلاً ، ويخرج منه صهراً كريماً ؟ »

« وبعد : فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتَّمَطُّقُ (١) بحديثها ، والقيام

(١) تَمَطَّقَ : صَوَّرَ بلسانه عند استطابة الطعام .

والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها ، وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم ، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم ١٩

« هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز !

« أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شعثم ، ودعوا هذا الباب موصلًا ؛ فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيماً وشقاءً طويلاً .
« أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها ؛ فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاه !

« إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه ، وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أترجمونها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم إلا خاسرين .
« ما شكت المرأة إليكم ظلماً ، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟

« إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حينما سارت وأبنا حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت أستارها ؛ تبرماً بكم وفراراً من فضولكم ، فوا عجباً لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها !
« إنكم لا تترثون لها بل تترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام

قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجاً وسفوراً ، ويتدفق خلاعة واستهتاراً ، تودون بجذع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذي خلفتموه هناك .

« لقد كنا وكانت العفة في سقاء^(١) من الحجاب موكوء^(٢) فمازلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقباً والعفة تتسلل منه قطرة قطرة حتى تقبض^(٣) وتكترش ، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة !

« عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جاريتها تبشها ذات نفسها وتستبشها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها وائثارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضاها . وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب .

« فقلتم لها : إن هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباهم ؛ وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

« وقلتم لها : لا بد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك

(١) السقاء : وعاء من جلد يكون للماء واللين .

(٢) أوكى القرية : شد رأسها بالوكاء ، والوكاء : الرباط .

(٣) تقبض : ييس .

عن سعادة مستقبلك ؛ فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

« وقلتم لها : إن الحب أساس الزواج ؛ فما زالت تقلب عينها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعُتيت به عنه .

« وقلتم لها : إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق . فأصبحت تطلب في كل يوم زوجًا جديدًا يجيى من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم ، فلا قديمًا استبقت ولا جديدًا أفادت (١) !

« وقلتم لها : لا بد أن تتعلمي لتحسنى تربية ولدك ، والقيام على شئون بيتك ؛ ففعلت كل شيء إلا تربية ولدها ، والقيام على شئون بيتها !

« وقلتم لها : نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا . فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباهج أنظاركم لتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تَر فيه غير أسماء الخليعات المُستَهْتَرَات (٢) ، والضحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ؛ فتخلعت واستهتَرت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم . ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضًا ، كما تعرض الأمة نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها وتبؤتم بها .»

« وقلتم لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعًا ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة

(١) أفاد : بمعنى استفاد . (٢) استهتر فلان : اتبع هواه فلا يبال بما يفعل .

منكسرة وقد أبأها الخليع ، وترفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

« وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعًا وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهبين ونساء عانسات .

« ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها ! نحن نعلم ، كما تعلمون ، أن المرأة في حاجة إلى العلم ، فليهبها أبوها أو أخوها ، فالتهديب أنفع لها من العلم ؛ وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم .

فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم . وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتمتع فيهما بنعمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك ، وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها ، كما يرافق الشاة راعيها خوفًا عليها من الذئاب . فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها ، فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

« أعجب ما أعجب له في شئونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا شيئًا واحدًا ، هو أدنى إلى مدارككم أن تعلموه قبل كل شيء ، وهو أن لكل تربة نباتًا ينبت فيها ، ولكل نبات زمانًا ينمو فيه !

« رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أم قد فرغت من ضرورياتها ؛ فاشتغلت بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء !

« ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانها ؛ فاشتغلت بنشرها بين أمة ضعيفة

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الغرء والسخرية ، وقال :
 * تلك حافات ما جتنا إلا لما لجبا ؛ فلنصطبر عليها حتى يقضى الله بيننا
 وبينها .

قلت له : * لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء ، واغتن
 لي أن أقول لك إنى لا أستطيع أن أخطف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى
 نفسي ؛ لأنى أعلم أن الساعة التى يفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن
 وجه امرأة من أهلك تغتلى وجاء وخجلاً . ثم انصرفت ، وكان هذا فراق
 ما بيني وبينه .

وما هى إلا أيام قلائل ، حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هلك الست
 في منزله بين نساءه ورجالاه ، وأن بيته أصبح مفضياً لا تزال الأعمال خالقة بياه ،
 فذرفت عيني دموعاً ، لا أعلم هل هى دموع الغيرة على المرض الكفالى ، أو
 الحزن على الصديق المفقود ؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ، ولا يزورنى ، ولا الفاه
 فى طريقه إلا قليلاً فأحسبه تحية الغريب للغريب من حيث لا يحيرى لما كان بيننا
 ذكر ، ثم أنطلق فى سبيل .

فانى لمائد إلى منزل ليلة أمس ، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ
 رأيته خارجاً من منزله يمشى ومشية الداهل الحائر وبجانبه جندى من جنود
 الشرطة ، كأنما هو يحرسه أو يقناده ، فأهمنى أمره ، ودنوت منه ، فسأله عن
 شأنه ، فقال :

* لا أعلم لى بشىء سوى أن هذا الجندى قد طرق الساعة بانى بدعوفى إلى
 مخفر الشرطة ، ولا أعلم لى مثل هذه الدعوة فى مثل هذه الساعة سبياً ، وما أنا
 بالرجل اللذنب ولا المرئى ، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقى بعد الذى كان

ساذجة لا يفتها عن إيمانها شىء ، إن كان هناك ما يفتى عنه ا
 * ورأيتم الرجل الأوروى حراً مطلقاً ، يفعل ما يشاء ، ويعيش كما يريد ؛
 لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته فى الساعة التى يعلم فيها أنه قد وصل إلى
 حدود الحرية التى رسمها لنفسه فلا يتخطاها ، فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية
 نفسها رجلاً ضعيف الإرادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية فى رأس منحدر
 زلق ، إن زلّت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى
 يبلغ الهوة ويتردى فى قرارها .

* ورأيتم الروح الأوروى الذى أطفأت البيعة غيرته وأزلت خشونة نفسه
 ونحزنها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء ، وتخاصح من تشاء ،
 وتخلو بين تشاء ، فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد التبلد ، فأردتم الرجل
 الشرقى الغيور اللتى أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

* ورأيتم المرأة الأوربية الجريئة المنتهية فى كثير من مواقفها مع الرجال
 تحفظ بنفسها وكرامتها ، فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز
 للرجال بزوجها ، وتحفظ بنفسها احفظها ا
 * وكل نبات يزرع فى أرض غير أرضه ، أو فى ساعة غير ساعته ، إما أن
 تأباه الأرض خلفظه ، وإما أن ينشب فيها فيفسدها .

* إنا نقترع إليكم باسم الشرف الوطنى والحرمة الدينية أن تتركوا تلك
 البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات فى بيوتن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم
 وآمالكم ، كما أزعجت من قبلهن . فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا
 جرح الشرف . فإن أبيت إلا أن تقموا فانظروا بأنفسكم قليلاً زينا تترع
 الأيام من صدوركم هذه الغيرة التى ورثموها عن آباءكم وأجدادكم لتستطيعوا
 أن تعيشوا فى حياتكم الجديدة سعاداً آمين .

بينى وبينك أن تصحبنى الليلة في وجهى هذا علنى أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لى هناك من الشئون ؟

قلت : « لا أحب إلئى من ذلك »

ومشيت معه صامتًا لا أحدثه ، ولا يقول لى شيئًا ، ثم شعرت كأنه يزور^(١) فى نفسه كلامًا يريد أن يفضى به إلئى ، فيمنعه الخجل والحياء ، فقالتته الحديث وقلت له :

« ألا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سببًا ؟ »

فنظر إلئى نظرة حائرة ، وقال : « إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتى الليلة حادث ، فقد رابنى من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة ، وما كان ذلك شأنها من قبل . »

قلت : « أما كان يصحبها أحد ؟ »

قال : « لا . »

قلت : « ألا تعلم المكان الذى ذهبت إليه ؟ »

قال : « لا . » . قلت : « ومم تخاف عليها ؟ »

قال : « لا أخاف شيئًا سوى أنى أعلم أنها امرأة غيور حمقاء ، فلعل بعض الناس حاول العبث بها فى طريقها ، فشرست عليه ، فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة . »

وكنا قد وصلنا إلى المخفر ، فاقنادنا الجندى إلى قاعة المأمور ، فوقتنا بين يديه . فأشار إلى جندى أمامه إشارة لم نفهمها ، ثم استدنى الفتى إليه وقال له : « يسوءنى أن أقول لك يا سيدى إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة فى مكان من أمكنة الريية برجل وامرأة ، فى حال غير صالحة ؛ فاقنادوهما إلى المخفر

(١) زور الكلام فى نفسه : هياه

فرعمت المرأة أن لها بك صلة ، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة فى أمرها . فإن كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك إكرامًا لك وإبقاء على شرفك ، وإلا فهى امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وهما ورائك فانظرهما . »

وكان الجندى قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه فإذا المرأة وزوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيونًا وآذانًا ، ثم سقط فى مكانه مغشيًا عليه . فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى فى مركبة إلى منزله ودعوناه له الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة ، ولبت ساهرًا بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح ، فانصرف على أن يعود متى دعوناه ، وعهد إلئى بأمره فلبث بجانبه أرثى لحاله وأنتظر قضاء الله فيه ، حتى رأته يتحرك فى مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآنى ، فلبث شاخصًا إلئى هنيهة كأنما يحاول أن يقول لى شيئًا فلا يستطيعه ، فدنوت منه وقلت له :

« هل من حاجة يا سيدى ؟ »

فأجاب بصوت ضعيف خافت : « حاجتى أن لا يدخل علئى من الناس

أحد . »

قلت : « لن يدخل عليك إلا من تريد . »

فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان^(١) بالدموع ، فقلت :

« ما بكأوك يا سيدى ؟ »

قال : « أتعلم أين زوجتى الآن ؟ »

قلت : « وماذا تريد منها ؟ »

(١) مخضلت : مبتل .

قال : « لا شيء سوى أن أقول لها إنى قد عفوت عنها . »

قلت : « إنها في بيت أبيها . »

قال : « وارحمتهما ولأبيها ولجميع قومها ، فقد كانوا قبل أن يتصلوا إلى شرفاء أجمادا ، فألبستهم مذ عرفوني ثوباً من العار لا تبلوه الأيام . »

« من لي بمن يبلغهم عنى جميعاً أننى مريض مشرف ، وأننى أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم ، وأننى أضرع إليهم أن يصفخوا عنى ويفتروا زلتى ، قبل أن يسبق إليّ أجلى ؟ »

« لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها (١) أن أصون عرضها صيانتى لحياتى ، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسى ، فحششت في يمينى ، فهل يغفر لى ذنبى فيغفر لى الله بغفرانه ؟ »

« نعم إنها قتلتنى ! ولكننى أنا الذى وضعت فى يدها الخنجر الذى أغمدته فى صدرى فلا يسألها أحد عن ذنبى . البيت بيتى ، والزوجة زوجتى ، والصديق صديقى ، وأنا الذى فتحت باب بيتى لصديقى إلى زوجتى ، فلم يذنب إليّ أحد سوى . »

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً ، حتى لبست وجهه ، فزفر زفرة خلعت أنها خرقت حجاب قلبه ، ثم أنشأ يقول :

« آه ما أشد الظلام أمام عيني ! وما أضيقت الدنيا فى وجهى ! فى هذه الغرفة ، على هذا المقعد ، تحت هذا السقف كنت أراهما جالسين يتحدثان تملأ نفسى غبطة وسروراً ، وأحمد الله على أن رزقنى بصديق وفى يؤنس

(١) اهتدى الرجل امرأته : جمعها إليه وضمها.

زوجتى فى وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقى فى غيبتى ، فقولوا للناس جميعاً : إن ذلك الرجل الذى كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم ، قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وغبى إلى الغاية التى لا غاية وراءها . والحقاً على أم لم تلدنى وأب عاقر لا نصيب له فى البنين (١) !

« لعل الناس كانوا يعلمون من أمرى ما كنت أجهل ، ولعلمهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويتسسم بعضهم إلى بعض ، أو يحدقون إليّ ويطيلون النظر فى وجهى ؛ ليروا كيف تتمثل بالبلاهة فى وجوه البله ، والغباوة فى وجوه الأغبياء ! »

« ولعل الذين كانوا يتوددون إليّ ويتمسحون لى من أصدقائى إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلى ، ولعلمهم كانوا يسموننى فيما بينهم قواداً ويسمون زوجتى مومساً وبيتى ماخوراً (٢) ، وأنا عند نفسى أشرف الناس وأنبههم ! »

« فوارحمته لى إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، والحقاً على زاوية منفردة فى قبر موحش يطوينى ويطوى عارى معى . »
ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مريض ولدته تحمله على يدها حتى وضعت بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه ، فأحس به ففتح عينيه ، فرآه فابتسم لمرآه وضمه إلى صدره ضمة الرفق

(١) يريد : ليتنى لم أولد . (٢) الماخور : بيت الدعارة والفساد .

والحنان وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح :

« أبعده عنى لا أعرفه ، ليس لى أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه ! لا ألبس العار في حياتى وأتركه أثرا خالداً ورائى بعد ممتى . »

وكانت الموضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ؛ فسمع صوته وهو يتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت إليه واستعبر باكياً ، وصاح :

« أرجعوه لى . » فعادت به الموضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

« فى سبيل الله يا بنى ما خلف لك أبوك من اليتيم ، وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما إليك ؛ فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك أحسن فى جريمته التى اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان ! سواء أكنت ولدى يا بنى أم ولد الجريمة فإنى قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندى حياً أو ميتاً ! »

ثم احتضنه إليه ، وقبله فى جبينه قبلة لا أعلم هل هى قبلة الأب الرحيم أو المحسن الكريم ؟

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها فى رأسه ، وما زال ينقل شيئاً فشيئاً حتى خفت عليه التلف ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة يأساً وحرزناً . ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ويئن أنيناً مؤلماً ، فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها .

فإنا لجلوس حوله وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريره إذا امرأة

مؤتزة بإزار أسود قد دخلت الحجرة ، وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ، ثم أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها ، وأخذت تقول له :

« لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب فى ولدك ، فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عنى يا والد ولدى واسأل الله عندما تقف بين يديه أن تلحقنى بك فلا خير لى فى الحياة من بعدك . »

ثم انفجرت باكياً .. ففتح عينيه ، وألقى على وجهها نظرة باسمه ، كانت هى آخر عهده بالحياة وقضى .

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقى بيدي وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر ، والروض الزاهر ، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعى وزفرائى ، فلا يُهون وجدى عليه ، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده ، فافتحمه ، فمات شهيداً فنجت بهلاكه .

تحتفظ به احتفاظ الرجال . إنك ضحكت بالأمس كثيرًا ، فابك اليوم بمقدار ما ضحكت بالأمس ؛ فالسرور نهار الحياة والحزن ليلها ، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم .

« لو أن ما ذهب من يدك من ملكك ذهب بصدمة من صدمات القدر ، أو نازلة من نوازل القضاء ، من حيث لا حول لك في ذلك ولا حيلة ؛ لكان أمره عليك ، أما وقد أضعته بيدك ، وأسلمته إلى عدوك باختيارك ، فابك عليه بكاء النادم المتفجع الذي لا يجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى .

« لا يظلم الله عبدًا من عباده ، ولا يريد بأحد من الناس في شأن من الشئون شرًا ولا ضيرًا ، ولكن الناس يأبون إلا أن يقفوا على حافة الهوة الضعيفة فتزل بهم أقدامهم ، ويمشوا تحت الصخرة البارزة المشرفة فتسقط على رؤوسهم .

« لم تقنع بما قسم الله لك من الرزق ؛ فأبيت إلا الملك والسلطان ؛ فتازعت عمك الأمر ، واستعنت عليه بعدوك وعدوه ، فتناول رأسيكما معًا وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قلب^(٣) من الدم ففرقتما فيه معًا .

« لى فوق هذه الصخرة يا بنى الأحمر سبعة أعوام أنتظر فيها هذا المصير الذى صرتم إليه ، وأترقب الساعة التى أرى فيها آخر ملك منكم يرحل عن هذه الديار رحلة لا رجعة من بعدها ؛ لأنى أعلم أن الملك الذى يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا بقاء .

« اتخذ بعضكم بعضًا عدوًا ؛ وأصبح كل واحد منكم حربًا على

(١) القلبُ : البئر .

الذكرى

« مترجمة »

وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة^(١) بعد انكساره أمام جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابلا^(٢) على شاطئ الخليج الرومى تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله إلى السفينة المعدة لحمله إلى أفريقيا ، وقد وقف حوله نساؤه وأولاده وعظماء قومه من بنى الأحمر . فألقى على ملكه الذاهب نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع ، ثم أدنى رداءه من وجهه وأنشأ يبكي بكاء مرًا ويتشجج تشججًا محزنًا حتى بكى من حوله لبيكاته ، وأصبح شاطئ البحر كأنه ساحة قائمة تتردد فيها الزفرات ، ويسبق العبرات ، فإنه لواقف موقفه هذا وقد ذهل عن نفسه وموقفه إذ أحس هاتفًا يهتف باسمه ، بصوت كأنما ينحدر إليه من علياء السماء ، فرفع رأسه فإذا شيخ ناسك متكئ على عصاه واقف على باب مغارة من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر إليه ويقول :

« نعم ، لك أن تبكى أيها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء ، فإنك لم

(١) مدينة بالأندلس (أسبانيا) كانت من مراكز الحضارة العربية الإسلامية ، احتلها المرابطون م ١٠٩٠ ، واتخذها بنو الأحمر عاصمة لهم (٦٣٣ - ٨٩٨ هـ / ١٢٣٥ - ١٤٩٢ م) . أهم أربانها العربية قصر الحمراء .

(٢) كانت إسبانيا في أواخر حكم العرب في الأندلس عدة ممالك صغيرة فانضم بعضها إلى بعض وأصبحت مملكتين قويتين : أراغون وقشتالة ، فتزوج فرديناند ملك أراغون بإيزابلا ملكة قشتالة سنة ١٤٩٦ ، واتحدوا على طرد العرب من غرناطة ، فتم لهما ذلك بعد حروب كثيرة .

صاحبه ؛ فسقتم المسلمين إلى ميادين القتال يضرب بعضهم وجوه بعض ، والعدو رابض من ورائكم يترصد بكم الدوائر ويرى أن كلا منكم قائد من قواده ينبعث بين يديه لقتال أعدائه ، والمناضلة على ملكه ، حتى رآكم تنهافتون^(١) على أنفسكم ضعفاً ووهناً فافتحمكم ، فما هي إلا جولة أو جولتان حتى ظفر بكم معاً .

« ستقفون غداً بين يدي الله يا ملوك الإسلام ، وسيسألکم عن الإسلام الذي أضعثموه وهبطتم به من علياء مجده حتى ألصقتم أنفه بالرغام^(٢) ، وعن المسلمين الذين أسلمتوهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين ، وعن مدن الإسلام وأمصاره التي اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها في أيديكم لتذودوا عنها ، وتحموا ذمارها ، فلم تحركوا في شأنها ساكناً حتى غلبكم أعداؤكم عليها ، فأصبحتم تعيشون فيها عيش الأذلاء وتطردون منها كما يطرد الغرباء ، فماذا يكون جوابكم إن سئلتم عن هذا كله غداً ؟

« ها هي النواقيس ترن في شرفات المآذن بدل الأذان ، وها هي المساجد تطأ نعال الصليبيين في تربتها مواقع جباه المسلمين ، وها هو المسلم يفر بدينه من مكان إلى مكان ، ويلوذ بأكتاف الهضاب والشعاب ، لا يستطيع أن يؤدي شعيرة^(٣) من شعائر دينه إلا في غار كهذا الغار الذي أعيش فيه !

« ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى لا نظام لهم ولا ملك ولا سلطان ، كما يعيش المشردون في آفاق البلاد ، فقد كان خيراً لهم من أن يتولى أمرهم رجال مثلكم طامعون مستبدون يلفون على أعناقهم جميعاً غلاً واحداً

(١) نهافت الشيء : تساقط وتتابع . (٢) الرغام : التراب . (٣) الشعيرة : كل ما جعل علامة لعبادة الله .

يسوقونهم به إلى موارد التلف والهلاك من حيث لا يستطيعون ذوقاً عن أنفسهم ، وما تفعل الفوضى بأمة ما يفعل بها الاستبداد .

« يسألکم الله يا بنى الأحمر عنى وعن أولادى الذين انتزعتموهم من يدي انتزاعاً حوج ما كنت إليهم ، وسقتموهم إلى ميادين القتال ليقاتلوا إخوانهم المسلمين قتالاً لا شرف فيه ولا فخار حتى ماتوا جميعاً موت الأذلاء الأذنياء . فلا أنتم تركتموهم بجانبى آنس بهم في وحشتى وأجأ إلى معونتهم في شيخوختى ، ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتال شريف فأتعزى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداء عن دينهم ووطنهم . فما أنذا عائش من بعدهم وحدى في هذا الغار الموحش ، فوق هذه الصخرة المنقطعة أبكى عليهم ، وأسأل الله أن يلحقنى بهم فمتى يستجيب الله دعائى ؟»

ثم اختنق صوته بالبكاء ، فأدار وجهه ومشى بقدم مطمئنة يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون ، فنالت كلماته من نفس الأمير ما لم ينل منها ضياع ملكه وسقوط عرشه فصاح :

« ما هذا بشراً إنما هو صوت العدل الإلهي ينذرني بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضي ، فليصنع الله بي ما يشاء ، فعدل منه كل ما صنع .»
ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله وراءه فسارت السفينة بهم تشق عباب الماء شقاً ، فسجل التاريخ في تلك الساعة : أن قد تم جلاء العرب عن الأندلس بعد ما عمروها ثمانمائة عام^(١) .

بعد مرور أربعة وعشرين عاماً على تلك الحوادث ، لم يبق في إفريقية حتى من بنى الأحمر إلا فتى في العشرين من عمره ، اسمه « سعيد » لم ير غرناطة ،

(١) دخل العرب إسبانيا سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م وتم جلاؤهم عنها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م .

ولا قصر الحمراء ، ولا المرج ، ولا جنة العريف ، ولا نهر شنيل ، ولا عين الدمع ، ولا جبل الثلج^(١) ، ولكنه ما زال يحفظ في ذاكرته من عهد الطفولة تلك الأناشيد الأندلسية البديعة التي كان يترنم بها نساء قومه حول مهده ، ويرددن فيها ذكر آبائه وأجداده وآثار أيديهم وعزة سلطانهم في تلك البقاع ، وتلك المراثي المحزنة المؤثرة التي بكى فيها شعراء الأندلس ذلك المجد الساقط والملك المضاع ، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد تلك المراثي بنغمة شجية محزنة تستثير عبرته . وتبيح أشجانها ، فلا يزال يبكي ويتحجب حتى يشرف على التلف . فكان لا يتمنى على الله من كل ما يتمنى امرؤ على ربه في حياته إلا أن يرى غرناطة ساعة من زمان يشفى بها غلة نفسه ، ثم ليصنع الدهر به بعد ذلك ما يشاء .

وكان كلما هم بالذهاب إليها ، قعد به عن ذلك أن وراءه عجوزاً من أهله مريضة ، وما كان يستطيع أن يتركها ، ولا يجد من يعتمد عليه في القيام بشأنها حتى وافاها أجلها فركب البحر من سبتة إلى شاطيء مَلَقَة ، ثم انحدر منها إلى غرناطة متنكراً في ثوب طيب عرني من أطباء أعشاب يتَبَقَّل^(٢) في جبال الأندلس وسهولها حتى بلغ ضاحتيتها ساعة الأصيل . فوقف على هضبة من هضاب جبل الثلج ، فرأى الأمواه تنزلق عنه في هدوء وسكون ، كأنها فوق

(١) قصر الحمراء في غرناطة مقر ملوك بني الأحمر ، وهو أعظم قصور العالم ولا يزال من أكبر الآثار التاريخية حتى اليوم . ومرج غرناطة : مشهور بجمال منظره واطراد مياهه ويشبهونه بقطرة دمشق . وجنة العريف : بستان عظيم جداً بقرناطة فيه قصور ومبان ومنازه كثيرة . ونهر شنيل : أعظم أنهار غرناطة ، وهو يخترق المدينة من أعلاها إلى أدناها . وعين الدمع : جبل بظاهر غرناطة به منازة وبساتين . وجبل الثلج : بجنوب غرناطة لا يكاد يفارقه الثلج صيفاً وشتاءً ونجى منه يتابع كثيرة وأنهار صغيرة تسقى ما يحيط بها من الغياض والبساتين .

(٢) تَبَقَّل : خرج لطلب البقل .

سطحه اللامع المتلألئ قميص من النور ، أو قبة من البلور ، حتى تصل إلى سفحه فإذا هي حيات بيضاء مذعورة ، تنبث ههنا وههنا لاهم لها إلا النجاة من يد مطاردها حتى تعثر بجداول ماء في طريقها فتدغم فيه وتنساب في أحشائه .

ثم التفت إلى المدينة فرأى على البعد أبراجها العتيقة الحمراء وقبابها العالية الشماء ، وماآذنها الذاهبة في جو السماء ، فوقف أمام هذا المنظر الجليل المهيب موقف الخاشع المتخضع ، وضم إحدى يديه إلى الأخرى ، ووضعها على صدره كأنما هو قائم أمام المحراب يؤدي صلاته ، ولبت على ذلك برهة ثم صاح بصوت عال رددته الغابات والخرجات^(١) يقول :

« هذا ميراث آبائي وأجدادي ، لم يبق لي منه إلا وقفة بين يديه كوقفة الثاكل المفجوع بين أيدي الأطلال البوالي والآثار الدوارس .

« هذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم ؛ وهم لا مضاجع لهم إلا رمال الصحراء وكثبان الفلوات .

« هذه قصورهم ، تشرف على الأرض الفضاء وتطل من عيون نوافذها كأنما تترقب أن يعودوا إليها فيعمروها كما كانوا فلا يفعلون .

« هذه قبابهم وأبراجهم رافعة رأسها ليلها ونهارها إلى السموات العلى ، تدعو الله أن يعيد إليها بُنائها وحماتها فلا يستجاب لها دعاء .

« في هذه البساتين كانوا ينعمون ، وتحت هذه الظلال كانوا يُقِيلون ؛ وعلى ضفاف هذه الأنهار كانوا يغدون ويروحون ، واليوم لا غاد منهم ولا رايح ، ولا ساخ تحت هذه السماء ولا بارح !»

(١) الحرجة : غيضة الشجر اللتفة لا يقدر أحد أن ينفذ فيها ، أو الشجرة بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة .

تم نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها ، ورأى جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيبدها بين يديه تبيدًا فتهافت^(١) على نفسه ، وهو يقول : « هكذا تدول^(٢) الدولات وتسقط التيجان ، وهكذا تحل الظلمات محل الأنوار ، وهكذا تنتشر سحب الموت على وجه الحياة . »

ثم توسد ذراعه واستغرق في نومه بين وطاء الأرض وغطاء السماء ، فلم يستفق حتى مضت دولة الليل ، فمشى إلى نهر جار في سفح الجبل فصلى عنده صلاة الفجر ، ثم انحدر إلى المدينة يفتش عن خان يأوى إليه ، فلم يجد في طريقه من يرشده إلى طلبته حتى بلغ شنيل ، فمشى على ضفته يتفقد البنور ويتلمس الأعشاب ويتنظر يقظة المدينة بعد هجرتها .

وإنه لذلك إذ انفتح بين يديه باب قصر عظيم ، وإذا فتاة إسبانية خارجة منه قد أسبلت على وجهها حمارًا أسود شفافًا ، وأرسلت على صدرها صليبا ذهبيا صغيرًا ، ومشى وراءها غلام يحمل على يده الكتاب المقدس ، فلمحته في مكانه فأدهشها موقفه ، فدنت منه ورفعت قناعها عن وجهها ، فإذا الشمس طالعة حسنا وبهاء ، وقالت له بلسان عربى تخالطه بعض العجمة :

« أغريب أنت عن هذا البلد أيها الفتى ؟ »

قال : « نعم لقد نزلت به الساعة فلم أعرف طريق الخان الذى يأوى إليه الغرباء ، ولم أجد فى طريقى من يدلنى عليه . »

فسمعت فى صوته رنة الشرف ورأت بين أعطافه مخائل النعمة فأهمها أمره ، وأشارت إليه أن يتبعها لتدله على ما يريد ، فمشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان فحيتته بابتسامة عذبة ، وقالت له : « لا تنس أن تزورنى أيها

(١) تهافت : تساقط . (٢) يدول : ينتقل من حال إلى حال .

الغريب كلما عرضت لك حاجة . » ثم سارت فى طريق كنيستها . كما أن السماء فى ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضى صفحتها وتر بها الشهب فتلمع فى أرجائها ، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها عما ضوؤها ضوء جميع تلك الثيرات ؛ كذلك القلب الإنسانى لا تزال تمر به مختلف العواطف وأشتات الأهواء مجتمعة ومفترقة حتى إذا بلغ وأشرقت عليه شمس الحب ، غربت بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء .

فقد أصبح الأمير ينظر إلى غرناطة منذ الساعة بعين غير العين التى كان ينظر بها إليها من قبل ، ويرى فى وجهها صورة الأنس بعد الوحشة ، والنور بعد الظلمة ، والحياة بعد الموت فسكن نائره وبردت جوانحه ، وهدأت فى نفسه ثورة الغضب التى كانت لا تزال تعتلج بين أضلاعه . فكان إذا مر بمسجد من تلك المساجد التى استحالت إلى كنائس ، استطاع أن يقف أمامه هنيئة عله يرى الفتاة الإسبانية بين الداخلات إليه أو الخارجات منه ، وإذا رأى الصليب مشرفًا على رأس مئذنة ذكر الصليب الذهبى الجميل الذى رآه على صدرها يوم اللقاء فاغتفر منظر هذا لمنظر ذاك ، وإذا سمع أصوات النواقيس ترن فى أجواز الفضاء ، ذكر أنه كان يسمع ذلك الصوت الرنان فى الساعة التى رآها فيها ، فأنس به وسكنت نفسه إليه .

وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا هم له إلا أن يتمشى صبيحة كل يوم على ضفاف نهر « شنيل » يقلب نظره فى أبواب الفصور المشرفة على ذلك النهر عله يعرف قصر الفتاة فلا يعرفه ، وفى وجوه الغاديات والرائحات من الفتيات عله يراها بينهن فلا يراها ، حتى إذا نال منه اليأس انكفأ راجعًا إلى مقبرة آباته فى ظاهر المدينة فجلس بين القبور يذرف دموعًا غزيرًا ، لا يعلم هل هى دموع الذكرى القديمة أو دموع الذكرى الجديدة !

نكب الدهر « فلورندا » منذ عامين نكبة لا تزال لوعتها متصلة بقلبها حتى اليوم ، فقد كان أبوها رئيس جمعية « العصابة المقدسة » التي قامت في وجه الحكومة أعوامًا طوالاً ، تطالبها بالحرية الدينية والشخصية لجميع الشعوب المحكومة على اختلاف مذاهبها وأجناسها حتى أعيان رجال الحكومة أمرها ، فدسوا لرئيسها من قتله غيلة^(١) تحت ستار الظلام ، فحزنت ابنته عليه وعلى أمها التي ماتت على أثره حزناً شديداً ما كان يفارقها في جميع غلدواتها وروحاتها . فأصبحت وهي لم تسلخ^(٢) الثامنة من عمرها تعيش في قصورها عيش الزاهدات المتبتلات ، فكان لا يراها الرائي إلا ذاهبة إلى الكنيسة أو عائدة منها لا يصحبها إلا غلامها ، أو واقفة على أطلال الدولة الماضية ورسومها تقلب فيها نظر العظة والاعتبار ، أو هائمة على وجهها في مروج غرناطة وبساتينها حتى ينزل ستار الليل فتعود إلى قصرها ، وكذلك كان شأنها في جميع أيامها حتى سماها أهل غرناطة « الراهبة الجميلة » .

فإنها لسائرة يوماً بجانب مقبرة بنى الأحمر ، إذ لمحت على البعد فتى عربياً مكباً على أحد القبور كأنما يقبل صفائح وبيد تربته بدموعه ، فرثت لحاله ومشت نحوه حتى دانت فأحس بها ، فرفع رأسه فعرفها وعرفته . فقالت له :
« إنك تبكي ملوكك بالأمس أيها الفتى ، فابكهم كثيراً ؛ فقد جف تراب قبورهم لقلة من يبكي عليهم . »

قال : « أترئين لهم يا سيدتى ؟ »

قالت : « نعم ؛ لأنهم كانوا عظماء فنكبهم الدهر وليس أحق بدموع الباكين من العظماء الساقطين . »

(١) الغيلة : القدر . (٢) سلخ الشهر : أمضاه وصار في آجره .

قال : « شكراً لك يا سيدتى فهذه أول ساعة شعرت فيها ببرد العزاء يدب في صدري مذ وطئت قدماى أرضكم هذه . »

قالت : « هل زرت قصورهم وآثارهم التي تركوها من بعدهم في هذه الديار ؟ »

فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه ، فإذا دمعة تترجج في مقلتيه وقال :
« لا يا سيدتى . لقد حاولت الدنو منها فطردي عنها الموكلون بأبوابهم ، كأنما هم يجهلون أن ليس بين الأحياء جميعهم في هذا العالم كله من هو أولى بها منى . »

قالت : « أتمت^(١) إلى أحد من أصحابها بنسب أو رحم ؟ »

قال : « لا ياسيدتى ، ولكنى عبدتهم ومولاهم ، وصنيعة أيديهم ، وغرس نعمتهم ، فلا أنسى ولاءهم ما حييت . »

قالت : « إن رأيتك غداً في مثل هذه الساعة في هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد منها . »

قال : « لكن فعلت لا يكونن امرؤ على وجه الأرض أشكر لنعمتك منى ، فحيته وانصرفت ، ومضى هو إلى خانة بين صبابة تقيمه وتقعهده ، وأمل يميته ويحييه . »

وفت « فلورندا لصديقها العربي بما وعدته به ، فجاءته في اليوم الثاني فأزارته بعض الآثار ، ثم جاءته في اليوم الثالث فأزارته بعضاً آخر منها ، وهكذا ، ما زالوا يجتمعان كل يوم ويفترقان ، ويختلفان إلى ما شاء من الرسوم والآثار لا ينكر الناس من أمرهما شيئاً ؛ فقد كانوا يقولون إذا رأوها معاً : إن الراهبة

(١) مت إليه : اتصل به .

الجميلة تحاول أن تهدى الفتى العربى إلى دينها القويم ، حتى استحال العطف الذى كانت تضمره له فى نفسها مع الأيام إلى حب شديد ، وكذلك العطف دائماً طريق الحب أو هو الحب نفسه لا بساً ثوباً غير ثوبه . إلا أن أحداً منهما لم يجروا أن يكشف صاحبه بما أضمره له فى نفسه ، حتى جاء اليوم الذى عزم على زيارة قصر الحمراء ، وهو آخر ما بقى بين أيديهما من الآثار ، فلا لقاء بينهما بعد اليوم .

وقف الأمير أمام قصر الحمراء فرأى سماء تطاول السماء ، وطوداً^(١) يناطح الجوزاء ، وهضبة تشرف على الهضاب ، وسحابة تمر فوق السحاب ، وجبالاً تحسُر^(٢) عن قمته العيون ، وتضل فى جوانبه الظنون ، وحصناً تتقاصر عنه يد الأيام ، وتهافت من حوله السنون والأعوام .

ثم دخل فإذا ملك كبير وجنة وحرير، وقباب تفضى إليها النجوم بالأسرار، وأبراج تنزلق عن سطوحها يد الأقدار ، وصحون مفروشة بألوان الحصباء ، كأنها الرياض الزاهر ، وجدران صقيلة ملساء تصف ما بين يديها من الأشياء ، كما تصف المرأة وجه الحسناء ، وكأن كل جدار منها لُجة^(٣) متلاطمة الأمواج يجبسها عن الجريان لوح من زجاج ، فمشى يقلب نظر العظة والاعتبار ، بين تلك المشاهد والآثار ويتنغم فى نفسه بقول القائل :

وقفت بالحمراء مُستَغِيرَا

مُعْتَبِرَا أَنَدَبَ أَشْتَاتَا

فقلت: يا حمراء هل رجعة؟

قالت: وهل يرجع من ماتا؟

(١) الطود : الجبل . (٢) تحسُر : تكل وتضعف ، أى لا تستطيع الوصول إلى قمته لعظم ارتفاعه . (٣) لُجة : ماء كثير .

فلم أزل أبكى على رسمها

هيات يُغنى الدمع هياتا

كأئما آثار من قد مضوا

نوادب يندبن أمواتا

حتى وصل إلى الساحة الكبرى فرأى صحنًا مفروشًا ببساط من المرمر الأصفر قد دارت به فى جهاته الأربع أربعة صفوف من الأعمدة النحاف الطوال ، وتراءت فى جوانبه حجرات متقابلات ، تعلوها قباب مشرفات ، فعلم أنها حجرات الأمراء والأميرات من أهل بيته فهاجت فى نفسه الذكرى ؛ وشعر أن صدره يحاول أن ينشق عن قلبه حزناً ووجدًا .

وأحس بحاجته إلى البكاء فاستحيا أن يبكى أمام « فلورندا » فتركها فى مكانها لاهية عنه بالنظر إلى بعض النقوش ، ومشى إلى بعض تلك القاعات حتى دانها ، فكان أول ما تناول نظره منها سطرًا مكتوبًا على بابها فما قرأه حتى صاح صيحة شديدة قائلاً : « وا أبتاه ! » وسقط مغشياً عليه ، فلم يستفق إلا بعد ساعة طويلة ، ففتح عينيه فوجد رأسه فى حجر « فلورندا » ووجد فى عينها آثار البكاء ، فقالت له :

« لقد كنت أعلم قبل اليوم أنك تكاتمى شيئاً من أسرار نفسك ، والآن عرفت أنك لست عبد بنى الأحمر ولا مولاهم كما تقول ، ولكنك أحد أمرائهم ، وأنت الساعة فى قصر جدك وأمام حجرة أيبك . فما أسوأ حظكم يا بنى الأحمر ، وما أعظم شقاءك أيها الأمير المسكين ! »

فلم يجد سبيلاً بعد ذلك إلى كتمان أمره ، فأنشأ يقص عليها قصته وقصة أهل بيته وما صنعت يد الدهر بهم منذ جلوا عن الأندلس حتى اليوم ، فلما فرغ من قصته نظر إليها نظرة منكسرة وقال لها :

« فلورندا ، إن جميع ما لقيته من الشقاء بالأمس يصغر بجانب الشقاء الذي تدخره لي الأيام غداً . »

قالت : « وأي شقاء ينتظرك أكثر مما أنت فيه ؟ »
فأطرق هنيئة ثم رفع رأسه وقال : « إنني أستطيع أن أحتمل كل شيء في الحياة إلا أن أفارقك فراقاً لا لقاء من بعده ! »

قالت : « أتجنبي أيها الأمير ؟ »

قال : « نعم ، حب الزهرة الذابلة للقطرة الهاطلة . »

قالت : « وهل تستطيع أن تحب فتاة مسيحية لا تدين بدينك ؟ »

قال : « نعم لأن طريق الدين في القلب غير طريق الحب ، ولقد وجدت فيك الصفات التي أحبها فأحببتك لها ، ثم لا شأن لي بعد ذلك فيما تعتقدين . »

قالت : « وهل تستطيع أن تحب بلا أمل ؟ »

قال : « ولم لا يكون الحب نفسه غاية من الغايات التي نجد فيها السعادة إن ظفرنا بها؟ ومتى كان للسعادة في هذه الحياة نهاية محدودة ، فلا نجد الراحة إلا إذا وصلنا إلى نهايتها ؟ »

وكان الليل قد أظلمها ، فبرحا مكانهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا الموضع الذي اعتادا أن يفترقا فيه ، فوضعت « فلورندا » يدها في يده وقالت له :
« سأحبك كما أحببتني أيها الأمير ، وسيكون حبي لك بلا أمل كحبي . ولقد فرق الدين بين جسدنا ، فليجمع الحب بين قلوبنا . » وتركته وانصرفت .

ثم مرت بهما بعد ذلك أيام سعدا فيها بنعمة العيش سعادة أنستهما جميع ما لقيتا في حياتهما الماضية من شقاء وعناء ، فأصبحا فوق أرض غرناطة وتحت سمائها طائرَيْن جميلين يطيران حيث يصفو لهما وجه السماء ، وتترقرق صفحة

الهواء ويقعان حيث يطيب لهما التفريد والتنقير ، فليت الدهر ينام عنهما ويتركهما وشأتهما ، ولا ينفُس عليهما هذه الساعات القليلة من السعادة التي ابتاعها بكثير من دموعهما وآلامهما ، والتي لا يملكان من سعادة الحياة سواها ، فإن خسراها خسرا كل شيء .

بينما هما جالسان ذات يوم على ضفة جدول من جداول عين الدمع إذ مر بهما « الدون رودريك » ابن حاكم مدينة غرناطة ، فرآهما في مجلسهما هذا من حيث لا يريانه ، وكان قد رأى « فلورندا » قبل اليوم فأحبها فاختلف إلى منزلها أياماً يتحجب إليها ويدعوها إلى الزواج منه فأبته أن تصغى إليه ، وقالت له : « إنني لا أتزوج ابن قاتل أبي ، فانصرف بلوعة لا تزال فانصرف في نفسه حتى اليوم . فلما رأها جالسة مجلسها هذا زعم في نفسه أنها ما أوصدت باب قلبها في وجهه إلا لأنها كانت قد فتحت من قبل لذلك الفتى العربي الجميل الذي يجالسها ، فذهب إلى قصرها في اليوم الثاني ليفضى إليها بما وقع في نفسه ، فأبته أن تقابله ، فخرج غاضباً يحدث نفسه بأفظع أنواع الانتقام . »

وما هي إلا أيام قلائل حتى سيق الأمير سعيد بن يوسف بن أبي عبد الله ، سليل بني الأحمر ملوك هذه البلاد بالأمس ومؤسس مجدها وعظمتها ، وبناء قلاعها وحصونها ، وأصحاب قصورها وبساتينها ، ذليلاً مهانئاً إلى محكمة التفتيش^(١) متهماً بمحاولة إغراء فتاة مسيحية بترك دينها ، وهي عندهم أفظع الجرائم وأهولها .

وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش فسأله الرئيس عن تهمته فأنكرها فلم يحفل بإنكاره ، وقال له :

(١) أنشئت في إسبانيا عام ١٤٧٨ بقصد استئصال البدع ، واستخدمت وسائل العنف البالغ في عمليات التحقيق والتعذيب والإعدام .

« لا يدل على براءتك إلا أمر واحد ، وهو أن تترك دينك وتأخذ بدين المسيح ! » فطار الغضب في دماغه ، وصرخ صرخة دوت بها أرجاء القاعة وقال :

« في أى كتاب من كتبكم ، وفي أى عهد من عهود أنبيائكم ورسلكم أن سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم ، ولا يدينون بدينكم ؟
« من أى عالم من عوالم الأرض أو السماء أتيتم بهذه العقول التى تصور لكم أن الشعوب تساق إلى الإيمان سوقاً ، وأن العقائد تسقى للناس كما يسقى الماء والخمر ؟

« أين العهد الذى اتخذتموه على أنفسكم يوم وطئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركونا أحراراً فى عقائدنا ومذاهبنا ، وأن لا تؤذونا فى عاطفة من عواطف قلوبنا ، ولا فى شعيرة من شعائر ديننا ؟

« أهذا الذى تصنعون اليوم ، والذى صنعتم بالأمس ، هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعى للذمم !؟

« نعم لكم أن تفعلوا ما تشاءون ؛ فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحت أصحاب القوة والسلطان فيها ، وللسلطان عزة لا تبالى بعهد ولا وفاء .

« إن العهود التى تكون بين الأقوياء والضعفاء إنما هى سيف قاطع فى يد الأولين ، وغلّ ملتف على أعناق الآخرين ، فلا أقال الله عثرة البلهاء ولا أقرّ عيون الأغبياء !

« أنتم أقوياء ونحن ضعفاء ، فأنتم أصحاب الحق الأبلج والحجة القائمة ؛ فاصنعوا ما شئتم فهذا حقكم الذى خولتكم إياه قوتكم .

« اسفكوا من دمائنا ما شئتم ، واسلبوا من حقوقنا ما أردتم ، واملكوا علينا مشاعرنا وعقولنا حتى لا ندين إلا بما تدينون ، ولا نذهب إلا حيث تذهبون

فقد عجزنا عن أن نكون أقوياء ؛ فلا بد أن ينالنا ما ينال الضعفاء ! »
ثم حاول الاستمرار فى حديثه فقاطعه الرئيس وأمر أن يساق إلى ساحة الموت التى هلك فيها من قبله عشرة آلاف من المسلمين قتلاً أو حرقاً ، فسيق إليها واجتمع الناس حول مصرعه رجالاً ونساء ، وما جرد الجلاد سيفه فوق رأسه حتى سمع الناس صرخة امرأة بين الصفوف ، فالتفتوا فلم يعرفوا مصدرها ، وما هى إلا غمضة وانتباهة أن سقط ذلك الرأس الذى ليس له مثيل .

يرى المار اليوم بجانب مقبرة بنى الأحمر فى ظاهر غرناطة قبراً جميلاً مزخرفاً ، هو قطعة واحدة من الرخام الأزرق الصافى ، قد نحتت فى سطحها حفرة جوفاء تمتلئ بماء المطر ، فهوى إليها الطير فى أيام الصيف الحار فيشرب منها ، ونقشت على ضلع من أضلاعها هذه السطور :

« هذا قبر آخر بنى الأحمر »

« من صديقه الوفية بعهدة حتى الموت »

« فلورندا فيليب »

أعوام ، فكان أول همى يوم هبطت أرضها أن أراه ، فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل ، فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة ، وتترقق وجوه ساكنيه بشراً وسروراً ، ثم زرته اليوم فخيّل إليّ أنني أمام مقبرة موحشة ساكنة ، لا يهتف فيها صوت ، ولا يترأى في جوانبها شبح ، ولا يلعب في أرجائها مصباح ؛ فظننت أني أخطأت المنزل الذى أريده ، أو أنني بين يدي منزل مهجور . حتى سمعت بكاء طفل صغير ولححت في بعض النوافذ نوراً ضعيفاً فمشيت إلى الباب فطرقته ، فلم يجبنى أحد فطرقته أخرى ، فلمحت من تحصاه^(١) نوراً مقبلاً ، ثم لم يلبث أن انفرج لى عن وجه غلام صغير فى أسمال بالية يحمل فى يده مصباحاً ضئيلاً ، فتأملته على ضوء المصباح فرأيت فى وجهه صورة أبيه ، فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذى كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إليّ بالدخول ومشى أمامى بمصباحه ، حتى وصلنى إلى قاعة شعناء مَعْبَرة بالية المقاعد والأستار . ولولا نقوش لاحت لى فى بعض جدرانها كباقي الوشم فى ظاهر اليد — ما عرفت أنها القاعة التى قضينا فيها ليالى السعادة والهناء اثنى عشر هلالاً .

ثم جرى بينى وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ؛ ثم تركنى ومضى ، وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لى إن والدته تريد أن تحدثنى حديثاً يتعلق بأبيه ، فحقق قلبى خفقة الرعب والخوف ، وأحسست بشراً لا أعرف مأتاه^(٢) .

(١) الحَصَاصُ جَمْعُ حَصَاةٍ ، وهى كل فُرْجَة أو عَشْرَق فى سَاب أو غيره .

(٢) المَاتَى : الوجه الذى يَأْتى منه الشىء .

الهاوية

موضوعة

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها ! ؟

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التى عشتها فى هذا العالم إلا عامًا واحدًا ، مر لى كما يمر النجم الدَّهْرَى فى سماء الدنيا ليلة واحدة ، ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتى أفتش عن صديق ينظر لى أصدقائه بعين غير العين التى ينظر بها التاجر لى سلعته ، والزراع لى ماشيته ، فأعوزنى ذلك حتى عرفت « فلانًا » منذ ثمانية عشر عامًا فعرفت امرئًا ما شئت أن أرى نَحْلَةً من خلال الخير والمعروف فى ثياب رجل إلا وجدتها فيه ، ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنسانى فى وجه إنسان إلا أضاءت لى فى وجهه ؛ فجلَّت مكانته عندى ونزل من نفسى منزلة لم ينزلها أحد من قبله ، وصفت كأس الود بينى وبينه لا يكدرها علينا مكدر .

حتى عرض إليّ من حوادث الدهر ما أزعجنى من مستقرى ؛ فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسى ، غير آسف على شىء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم ، فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عنى كتبه ثم انقطعت ، فحزنت لذلك حزناً شديداً وذهبت لى الظنون فى شأنه كل مذهب ؛ إلا أن أرتاب فى صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله قعد لى عن ذلك همٌّ كان يقعدنى عن كل شأن حتى شأن نفسى . فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد

ثم التفتُ فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب ، فحيتني فحييتها ، ثم قالت لى : « هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك ؟ »
قلت : « لا ؛ فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقت سبعة أعوام . »

قالت : « ليتك لم تفارقه ؛ فقد كنت عصمته التى يعنصم بها وحماه من غوائل الدهر وشورره ، فما هو إلا أن فارقت حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان ، وكان فتى ، كما تعلمه ، غريرًا ساذجًا ، فما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للإنسان ، حتى سقط فيه ، فسقطنا جميعًا فى هذا الشقاء الذى تراه . »

قلت : « وأى شر تريدان يا سيدتى ؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه ؟ »

قالت : « سأقص عليك كل شئ فاستمع لما أقول :

« ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه ، وعلقت حباله بحباله ، وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه ، حيث كان ، ولا تزال ، نعالم خافقة ورائه فى غدواته وروحاته ، فاستحال من ذلك اليوم أمره ، وتكررت صورة أخلاقه ، وأصبح منقطعًا عن أهله وأولاده ، لا يراهم إلا الفئنة بعد الفئنة^(١) ، وعن منزله لا يزوره إلا فى أخريات الليالى . ولقد اغتبطت فى مبدأ الأمر بتلك الحظوة التى نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التى نالها من نفسه ، ورجوت له من ورائها خيرًا كثيرًا ؛ مغتفرة فى سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عنى وإغفاله أمرى وأمر أولاده ،

(١) الفئنة : الساعة والحين .

حتى عاد فى ليلة من الليالى شاكياً متألماً يكابد عُصصاً شديدة وآلاماً جساماً ، فدنوت منه ، فشممت من فمه رائحة الخمر ، فعلمت كل شئ .
« علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرؤوسه ، فى الخير إن سلك طريق الخير ، والشر إن سلك طريق الشر ، قاد زوجى الفتى المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين . وأنه ما كان يتخذة صديقًا كما زعم ، بل نديمًا على الشراب ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه ، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين ؛ رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التى كان يحياها سعيدًا بين أهله وأولاده فما أجديت عليه شيئًا .

« ثم علمت بعد ذلك أن اليد التى ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب ، فلم أعجب لذلك ؛ لأنى أعلم أن طريق الشر واحدة ، فمن وقف على رأسها لا بُدَّ له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها . فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف ، الذى كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتم فيه رائحة النبيذ ، ويستحى أن يجلس فى مجتمع يجلس فيه قوم شاربون — سكيرًا مقامرًا مُستَهترًا لا يحتشم ، ولا يتلوم ، ولا يتقى عارًا ولا مآثمًا .

« وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم ، الذى كان يرضن بأولاده أن يعلق بهم الذرُّ ، وبزوجه أن يتجهم^(١) لها وجه السماء ، أبا قاسيًا وزوجًا سليطًا ، يضرب أولاده كلما دنوا منه ، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها . وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل فى بعض الليالى فى جمع من عُشرائه الأشرار ، فيصعد بهم إلى الطبقة التى أنام فيها أنا وأولادى فيجلسون فى بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون

(١) تجهّم له : استقبله بوجه كرهه .

ويقصفون^(١) حتى يذهب بعقولهم الشراب ؛ فيحتاجوا ، ويرقصوا ، ويملأوا الجو صراخاً وهتافاً ، ثم يتعادوا^(٢) بعضهم وراء بعض في الأبهاء^(٣) والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتي . وربما حذق بعضهم في وجهي أو حاول نزع خماري على مرأى من زوجي ومسمع فلا يقول شيئاً ، ولا يستنكر أمراً ؛ فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان . وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ، ولا خمار ، غير إزار الظلام وخماره ، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتي ؛ فأقضي عندهم بقية الليل .

وهنا تغيرت نغمة صوتها ، فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها ، فعملت أنها تبكي ؛ فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها ، ثم رفعت رأسها ، وعادت إلى حديثها تقول :

« وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال ، فكان لا بد له أن يستدين ففعل ، فأثقله الدين ، فرهن ، فعجز عن الوفاء ، فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ، ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه ؛ لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين ، أو غنيمة للمقامرين !

« هذا ما صنعت يد الدهر به ، أما ما صنعت لي وبأولادي ، فقد مر على آخر حلية بعثها من حُلَاي : عام كامل ، وها هي حوانيت المرابين والمسترهنين مَلَأَى بملابسي ، وأدوات بيتي وأثاثه ، ولولا رجل من ذوى قرباى رقيق الحال^(٤)

(١) قَصَفَ الرجل : أقام في أكل وشراب وهو .

(٢) تَعَادُوا : تَبَارَوْا في العَتُو ، أى الجري .

(٣) الأبهاء : جمع بهو ، وهو المكان

المُخَصَّصُ لاستقبال الضيوف .

(٤) رقة الحال كناية عن الفقر .

يعود على من حين إلى حين بالتزُّر القليل مما يستلُّه من أشدق عياله ، لهلكت وهلك أولادي جوعاً .

« فلعلك تستطيع يا سيدى أن تكون عوناً لي على هذا الرجل المسكين ، فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأى الصالح ، وأحسب أنك تقدر منه — للمنزلة التي تنزلها من نفسه — على ما عجز عنه الناس جميعاً ، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت .»

ثم حيتني ومضت لسيلها ، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل ، فقال : إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان ، فانصرفت لشأني ، وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتعدني وتذود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل ، وما كاد ينقضى .

ثم عدت في صباح اليوم الثاني ؛ لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به ، ولا أعلم ما مصير أمرى معه بعد ذلك ، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذهاب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يملك ؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم .

الآن عرفت أن الوجوه مرايا^(١) النفوس تضيء بضياؤها وتظلم بظلامها ؛ فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأنتنتي الأيام صورته ، ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع ؛ ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تَلَأُؤُ نور الشمس في صفحاتها ، فلما رأيته الآن ، ولم أر أمام عيني تلك الغلالة البيضاء التي كنت أعرفها ، خيل إلي أنني أرى صورة غير الصورة الماضية ، ورجلاً غير الذي كنت أعرفه من قبل .

(١) المرايا : جميع مرآة .

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الوضّاح ، الذى كان كل منبت شعرة في وجهه فمًا ضاحكًا تموج فيه ابتسامة لامعة ؛ بل رأيت مكانه رجلاً شقيًا منكوبًا ، قد لبس الهرم قبل أوانه ، وأوفى على الستين قبل أن يسلخ الثلاثين ، فاسترخى حاجباه وثقلت أجبافه ، وجمدت نظراته ، وتهدل عارضاه ، وتجعد جبينه ، واستشرف^(١) عاتقه ، وهوى رأسه بينهما هويه بين عاتقى الأحذب ، فكان أول ما قلت له :

« لقد تغير فيك كل شيء يا صديقى حتى صورتك! »

وكأنما ألم بما في نفسى ، وعرف أنى قد علمت من أمره كل شيء ، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها ، ولم يقل شيئًا ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه ، وقلت له : « والله ما أدري ماذا أقول لك . أأعظك ، وقد كنت واعظى بالأمس ، ونجم هداى الذى أستشير به في ظلمات حياتى ؟! أم أرسدك إلى ما أوجب الله عليك في نفسك ، وفي أهلِكَ ؟ ولا أعرف شيئًا أنت تجهله ، ولا تصل يدي إلى عبرة تقصر يدك عن نيلها ، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينه التى لا عضد لها في الحياة ، ولا معين سواك ؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذى طالما خفق بالبعء ، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء .

« إن هذه الحياة التى تحياها يا سيدى ، إنما يلجأ إليها الهَمَلُ^(٢) العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ؛ ليتواروا فيها عن أعين الناس حياءً وخجلًا ، حتى يأتهم الموت فينقذهم من عارهم وشقائهم ، وما أنت بواحد

(١) استشرف : ارتفع . (٢) الهَمَلُ : المُهْمَلُ المتروك بلا رعاية .

منهم .
« إنك تمشى يا سيدى في طريق القبر ، وما أنت بناقم على الدنيا ولا بمبترم^(١) بها ، فما رغبتك في الخروج منها خروج اليأس المتحسر ! عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى ، ولكنك تعلم أنك كنت غنيًا فأصبحت فقيرًا ، وصحيحًا فأصبحت سقيمًا ، وشريفًا فأصبحت وضيعًا ، فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد ، فقد تحلت رقعة الأرض من الأشقياء .

« إن كل ما يعينك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت ؛ فاطلبه في جُرعة سم تشربها دفعة واحدة ؛ فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذى يكثر فيه عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى .

« حسينا يا صديقى من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر ، فلا نضم إليه شقاء جديدًا نجلبه بأنفسنا لأنفسنا ! فهات يدك وعاهدنى على أن تكون لى منذ اليوم كما كنت لى بالأمس ، فقد كنا سعداء قبل أن نفرق ، ثم افترقنا فشقيننا ، وها نحن أولاء قد التقينا ؛ فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا .

ثم مددت يدي إليه ، فراعنى أنه لم يحرك يده ؛ فقلت له : « مالك لا تمد يدك إلى ؟ »

فاستعبر باكيًا وقال : « لأننى لا أحب أن أكون كاذبًا ولا حائثًا . »
قلت : « وما يمنعك من الوفاء ؟ »

(١) تبرم الأمر : سئمه وضمير منه .

قال : « بمنعنى منه أننى رجل شقى ، لا حظُّ لى فى سعادة السعداء . »
قلت : « قد استطعت أن تكون شقىاً ، فلم لا تستطيع أن تكون
سعيداً ؟ »

قال : « لأن السعادة سماء والشقاء أرض ، والنزول إلى الأرض أسهل من
الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمى عن حافة الهوة فلا قدرة لى على
الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة
المريرة ، فلا بد لى أن أشربها حتى تُمالتها ، ولا شىء من الأشياء يستطيع أن
يقف فى سبيلى إلا شىء واحد فقط ، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى
قبل اليوم ، ومادمت قد فعلت فلا حيلة لى فيما قضى الله . »
قلت : « ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من

الناجين . »

قال : « إن العزيمة أثر من آثار الإرادة ، وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على
أمرى ، لا إرادة لى ولا اختيار ، فدعنى يا صديقى والقضاء يصنع لى ما
يشاء ، وابك صديقك القديم منذ اليوم ، إن كنت لا ترى بأساً فى البكاء على
الساقطين المذنبين ! »

ثم انفجر باكياً بصوت عال وتركنى مكافى دون أن يجيبنى بكلمة ،
وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأنى وبين جنبى من
الهم والكمد ما لله به عليم .

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل نديمه بالأمس زمناً طويلاً ، فأقصاه عن
مجلسه استقلالاً له ، ثم عزله عن وظيفته استنكاراً للعمله ، ولم تذرف عينه دمعاً
واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد
أن يجهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه ، فلجأ هو وزوجته

وولداه إلى غرفة حقيرة فى بيت قديم فى زقاق مهجور ، فأصبحت لا أراه بعد
ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها ، فإن رأيت ذاهباً زويت وجهى عنه ، أو
عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما
سال منه من الدم ، ثم قدته إلى بيته .

وهكذا . ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله ،
حتى أصبح من يراه ظلاً من الظلال المتقلبة ، أو حلماً من الأحلام السارية ،
يمشى فى طريقه مشية الذاهل المشدوه ، لا يكاد يشعر بشىء مما حوله ،
ولا يتقى ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينه
حول نفسه ، كأنما يفتش عن شىء أضاعه وليس فى يده شىء يضيع ، أو يقبل
نظره فى أثوابه ، وما فى أثوابه غير الرقاق والخرق ! وينظر إلى كل وجه يقابله
نظرة شزراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق . وربما تعلق
بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل ، كما يدفع
النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت
سورتها فى رأسه ، انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما
كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية : عجزت
تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت ، وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها
باكيتين بين يديها ، تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما ، فلم تر لها بداً من
أن تركب تلك السبيل التى يركبها كل مضطر عديم ؛ فأرسلتهما خادمين فى
بعض البيوت يقتاتان فيها ويقيتانها . فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى زوجها
إلا فى الليلة التى تغفل فيها عنه عيون الشرطة ، وقلماً تغفل عنه ، فأصبحت
وحيدة فى غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز ، تختلف إليها من حين

فأعانا الله على أمرها فوضعت . ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضاً شديداً ، فلم تجد طبيياً يتصدق عليها بعلاجها ؛ لأن البلد الذى لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذى قلبه ، لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو منها ويأر ويأى حتى أدر كبر رحمة الله ، فوافاها أجلها فى ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عاتقة بثديها .

فى هذه الساعة دخل الرجل ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لئلا يله منه بما يريد ، فدار بعينيه فى أنحاء العرفة حتى رآها عمدة على حصونها ، ورأى ابنتها تبكى بجانبها ، فظننا نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها ، وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة ، فزابه الأمر وأحس برعدة تمشى فى أعضائه حتى أصابت قلبه ، فبدأ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً ، فأكبَّ عليها يحرق فى وجهها تحديقاً شديداً ، ويزحف نحوها رويداً رويداً حتى رأى شيخ الموت يحرق إليه من عينها الشاحختين الجاملتين ، فراجع خوفاً وذعراً فوطئ فى تراجع صدر ابنته فأثت أنه مؤثمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال : « واشتقاه ! » واشتقاه ! !

وخرج هائماً على وجهه يعدو فى الطررق ويضرب رأسه بالعمد والجدران ، ويدفع كل ما يجد فى طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح : « ابنتى ! زوجتى ! هلموا لى ! أدركونى ! » حتى أعيا فسقط على الأرض ، وأخذ يفحص التراب برجليه ويثن آيين اللديح ، والناس من حوله آسفون عليه ، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا فى وجهه آيات شقائه .

إلى حين ، فإذا فارقتها جارياً وختت بنفسها ، ذكرت تلك الأيام السعيدة التى كانت تغلب فيها فى أعطاف العيش الناعم والنعمة السابعة ، بين زوج كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسناً وبهاء . ثم تذكر كيف أصبح السيد مسؤولاً ، والمخدوم خادماً ، والمعزير الكريم ذليلاً مهيناً ، وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤى المنظوم الذى كان حلية بديعة فى جيد الدهر ، ثم استحال بعد انتشاره إلى حصيات منبذات على سطح الغبراء ، تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام ؛ فبكى بكاء الواله فى إثر قوم ظاعنين حتى تلفت نفسها أو تكاد !

على أنها ما أضمرت قط فى قلبها حقلاً لذلك الإنسان الذى كان سيباق فى شقائها وشقاء ولديها ، ولا حدثتها نفسها يوماً من الأيام بمعاضيبه أو هجرانه ؛ لأنها امرأة شريفة ، والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجه المنكوب . بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنون إلى طفلها الصغير ، فترحمه وتعطف عليه ، وتسهر بجانبه إن كان مريضاً ، وتأسو جراحه إن عاد جريحاً . وربما طرده الخمار فى بعض لياليه من حانه ، حيناً لا يجد معه ثمن الشراب ؛ فيعود إلى بيته ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب طلباً شديداً ؛ فلا تجد بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه ؛ رحمة به وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله . وكان الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقال ، حتى أضاف إليها ثقلاً جديداً ، فقد شعرت فى يوم من أيامها بتسمة تتحرك فى أحشائها ؛ فعملت أنها حامل ، وأنها ستأق إلى دار الشقاء بشقى جديد ، فهتفت صارخة : « رحمتك اللهم ، فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة ! » وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة ، حتى جاءت ساعة وضعها ، فلم يحضرها أحد إلا جارياً المعجوز ،

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سبباً في ضياع ما بقي من عقله .
وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولاً في قاعة من قاعات اليمارستان ، فوا رحته له ولزوجته الشهيدة ولطفلة الصريعة ولأولاده المردين البؤساء !

الجزء

« مترجمة »

جلست على ضفة البحيرة تملأ جرّتها ، وكان الماء ساكناً هادئاً كأنما قد امتدت فوق سطحه طبقة لامعة من الجليد ؛ فعز عليها أن تكسر بيدها هذه المرأة الناعمة الصقيلة ، ولا شيء أحب إلى المرأة من المرأة ؛ فظلت تقلب نظرها فيها ، فلمحت في صفحتها وجهاً أبيض رائقاً ينظر إليها نظراً عذباً فاتراً ، فابتسمت له ، فابتسم لها ، فعلمت أنه الوجه الذي افتتن به خطيبها القروي الجميل .

أنست بهذا المنظر ساعة ، ثم راعها أن رأت بجانب خيالها في الماء خيالاً آخر فتبينته فإذا به خيال رجل فدعرت ، ولكنها لم تلتفت وراءها ومدت يدها إلى الماء فملأت جرّتها ، ثم نهضت لتحملها ، فتقدم إليها ذلك الواقف بجانبها وقال لها : « هل تأذنين لي يا سيدتي أن أعينك على حمل جرّتك ؟ » فالتفتت فإذا قتي حضري غريب حسن الصورة والبزة^(١) لا تعرفه ، ولا تعرف أن هذه الأرض مما تنبت مثله ، فراها أمره واتقد وجهها حياءً وخجلاً ، ولم تقل شيئاً ، واستقلت^(٢) جرّتها ومضت في سبيلها .

نشأت سوزان وابن عمها جلبرت في بيت واحد كما تنبأ الزهرتان المتعانتان في مغرس واحد ، فرضعت معه وليدة ، ولعبت معه طفلة ، وأحبته

(١) البزة : الهيئة . (٢) استقلت الشيء : حملته ورزقته .

فتاة . ومرت بهما في جميع تلك الأدوار سعادة لم يستمداها من القصور والبساتين والأرائك والأسرة ، والجياد والمركبات ، والأكواب والدنان ، والمزاهر والعيدان ، والذهب اللامع ، واللؤلؤ الساطع ، والأثواب المطرزة ، والغلائل المرصعة ؛ لأنهما كانا قرويين فقيرين .

بل استمداها من مطلع الشمس ومغربها ، وإقبال الليل وإدباره ، وتلاؤلؤ السماء بنجومها الزاهرة والأرض بأعشابها الناضرة ، ومن الوقفات الطوال فوق الصخور البارزة على ضفاف البحيرة الهادئة ، والجلسات الحسوة الجميلة ، على الأعشاب الناعمة ، تحت ظلال الأشجار الوارفة ، ومن سماع أناشيد الحياة ، وأغاني الرعاة ، وضوضاء السائمة في غدوها ورواحها ، وبكاء النواعير^(١) في مسائها وصباحها ، ومن الحب الطاهر الشريف الذي يشرق على القلوب الخزينة فيسعددها ، والأفئدة المظلمة فينيرها ، والأجنحة الكسيرة فيريشها ، والذي هو العزاء الوحيد عن كل فائت في هذه الحياة ، والسلوى عن كل مفقود ، ولم يزل هذا شأنها حتى كان يوم البحيرة .

لا تعرف المرأة لها وجودًا إلا في عيون الرجال وقلوبهم ، فلو خلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين ، أو أقفرت حنايا الضلوع من خوافق القلوب ؛ لأصبح الوجود والعدم في نظرها سواء . ولو أن وراءها ألف عين تنظر إليها ثم لمحت في كوكب من كواكب السماء نظرة حب ، أو سمعت في زاوية من زوايا الأرض أنه وجد ؛ لأعجبها ذلك الغرام الجديد وملاً قلبها غبطة وسرورًا . فقد عادت الفتاة إلى بيتها طيبة النفس قريرة العين مزهورة مختالة ، لا لأن حبًا جديدًا حلَّ في قلبها محل الحب القديم ، ولا لأن نفسها حدثتها أن تصل حياتها

(١) النواعير : جمع ناعورة ، وهي « الساقية » ، أى الدولاب المعد لاستخراج الماء من البئر .

بحياة أحد غير خطيبها ، بل لأنها وجدت في طريقها برهانًا جديدًا على جمالها فأعجبها ، فكانت لا تزال تختلف بعد ذلك بجرتها إلى البحيرة غير خائفة ولا مرتابة ، فترى ذلك السيد الحضري في غدوها أو رواحها يجيها أو يتسم لها ، أو يسألها عن طريق ، أو يستسفيها شربة ماء ، أو يقدم إليها زهرة جميلة ، أو يلقي في أذنها كلمة عذبة ، حتى استطاع في يوم من الأيام أن يجلس بجانبها لحظة قصيرة في ظل صخرة منفردة ، فكانت هذه اللحظة آخر عهدا بحياتها القديمة ، وأول عهدا بحياتها الجديدة !

هبط المركيز جوستاف رويستان هذه الأرض منذ أيام لتفقد مزارعه فيها ، وكان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين ، فيقضى في قصره الجميل الذي بناه فيها على بعد ساعتين من البحيرة بضعة أيام ، ثم يعود إلى بلدته « نيس » . حتى رأى هذه المرة هذه الفتاة في بعض غدواته إلى ضفاف البحيرة فاستلهاه حسنها ، وما زال يفيض على قلبها من حبه ، وعلى أذنها من سحره ، وعلى جيدها ومعصمها من لآلئه وجواهره ، ويصور لها جمال الحياة الحضرية في أجمل صورها وأبهاها ، ويمنيا الأمانى الكبار في حاضرها ومستقبلها ، حتى أذعنت واستقادت وخضعت للتي تخضع لها كل أنثى نامت عنها عين راعيها ، وأسلمها حظها إلى أنياب الذئاب .

استيقظ الفتى جلبرت في الساعة التي يستيقظ فيها من صباح كل يوم فعمد إلى بقرته فحل عقالها ، ثم هتف باسم سوزان يدعوها إلى الذهاب معه إلى المرعى فلم تجبه ، فصعد إلى غرفتها في سطح المنزل ليوقظها فلم يجدها ، فسأل عنها أمه فلم تعلم من أمرها أكثر مما يعلم ، فظن أنها خرجت لقضاء بعض الشئون ، ثم تعود ، فلبث ينتظرها وقتًا طويلاً فلم تعد .

فرا به الأمر وأعاد البقرة إلى مُعتَلِّفها ، وخرج يفتش عنها في كل مكان ،

يسائل عنها الناس جميعًا غاديهم ورائحهم ، فلم يجد من يَدله عليها حتى أظله الليل ؛ فعاد حزينا مكثبا لا يرى أن أحدا على وجه الأرض أعظم لوعة منه ولا أشقى ، فرأى أمه قابعة في كسر البيت مطرقة برأسها تفلّي التراب يعود في يدها ، فدنا منها ، فرفعت رأسها إليه وقالت له :

« أين كنت يا جلبرت ؟ »

قال : « فتشت عن سوزان في كل مكان فلم أجدها . »

فألقت عليه نظرة مملوءة حزنا ودموعا ، وقالت : « خير لك يا بني ألا تنتظرها بعد اليوم . »

فانتفض انتفاضة شديدة ، وقال : « لماذا ؟ »

قالت : « قد دخلت على الساعة جارتنا فلانة ، فحدثتني أنها ما زالت تراها منذ ليالي تختلف إلى البحيرة للاجتماع على صفاها بفتى حضري غريب عن هذه المَدْرَة ، أحسبه المركيز « جوستاف روسنان » صاحب هذه المزارع التي تلينا والقصر الأحمر الذي يليها ، وقالت لي إنها رأتها ليلة أمس بعد منتصف الليل راكبة وراءه على فرس أشهب يعدو بها في طريق القصر الأحمر ، ولا بد أنها فرت معه . »

فصرخ جلبرت صرخة جادت لها نفسه أو كادت ، وخر في مكانه صعقا . فلم تزل أمه جاثية بجانبه الليل كله ، تبكى عليه مرة ، وتمسح جبينه بالماء أخرى ، حتى استفاق في مطلع الفجر ، فنظر حوله نظرة حائرة ، فرأى أمه مكبة على وجهها تبكى وتتنحب ، فذكر كل ذلك فأطرق هنيئة ، ثم رفع رأسه ووضع يده على عاتقها ، وسألها : « ما بك يا أمه ؟ »

قالت : « أبكى عليك يا بني وعليها . »

قال : « إن كنت باكية فابك على غيري ، أما أنا فلست بحزين ، ولا باك ،

فقد كنت أحببت هذه الفتاة لأنها كانت تحبني ، وقد استحال قلبي الآن إلى صخرة عاتية لا ينال منها شيء ، فلا رجعة لي إليها بعد اليوم ! » ثم مسح عن خده آخر دمعة كانت تنحدر فيه ، وقام إلى بقرته فأخذ بزمامها ومضى بها إلى المزرعة وحده .

لقد كذبت المسكين نفسه ، فإنه ما سلا سوزان ولا هدأت عن قلبه لوعة حبها ، ولكنها الغضبة التي يغضبها المحب المهجور ، تخيل إليه أنه قد نفص يده من المحب أشد ما يكون به عالقا .

فإنه ما وصل إلى المزرعة وأرسل سائمته في مرعاها ، حتى رأى كوكب الشمس يتناهض من مطلعته قليلا قليلا ، ويرسل أشعته الياقوتية الحمراء على هذه الكائنات ؛ فتغير ظلامها ، وتجلو صفحتها ، وتترقرق ما بين خضرائها وغبرائها ، فأعجبه منظر هذه الطبيعة المتألثة بين يدي هذا الكوكب المنير . ودار بنظره في الفضاء من مشرقه إلى مغربه ، فلمح في الأفق الغربي بارقا يحطف البصر بالألوان ، فخيّل إليه أن المغرب قد أطلع في أفقه شمسا كتلك التي أطلعها المشرق حتى تبيته ، فإذا هو لوح كبير من الزجاج أصفر مستدير تعابته أشعة الشمس فيما تعابث من الكائنات فيلتمع التماغا شديدا ، فاسترد بصره إليه سريعا ووضع يده على يسرى أضالعه ، كأنما يحول بين قلبه وبين الفرار ؛ لأنه علم أن ذلك اللوح الزجاجي الأصفر إنما يلوح في برج من أبراج القصر الأحمر .

هنا علم أن نفسه قد كذبت فيما حدثته ، وأن تلك البارقة التي كانت تضئ ما بين جنبيه من الحب قد استحالت إلى جذوة نار مشتعلة تقضم فؤاده قضمًا ، وتمشى في نفسه مشى الموت في الحياة ، فأطلق لعبرته سبيلها . وأنشأ يئن أنينا محزنا ترده الرياح في جوها ، والأمواج في بحرها ، والأعشاب في

مغارسها ، والسائمة في مرابضها ، حتى سمع أصوات الرعاة وضوضاء السائمة ، فكفكف عبراته ، وأسلم رأسه إلى ركبته وذهب مع همومه وأحزانه إلى حيث شاء الله أن تذهب .

هكذا لم ينتفع المسكين بنفسه بعد اليوم ، فقد ذهب من الحزن إلى أبعاد مذهبه ، حتى نال منه ما لم ينل كره الغداة ومر العشى ، فأصبح من يراه في طريقه يرى رجلاً باتساً منكوباً مشرد العقل ، مشترك اللب ، مذهوباً به كل مذهب ، يهيم على وجهه آفاء الليل وأطراف النهار بين الغابات والخرجات ، وفوق ضفاف الأنهار وتحت مشارف الجبال ، يأنس بالوحش أنس العشير بعشيرته ويفر من الناس إن دنوا منه فرار الإنسان من الوحش ، ويرد المناهل مع الطباء واليعاقير ^(١) ، ثم يصدر إذا صدرت معها .

وربما تراسى به السير أحياناً إلى أفنية القصر الأحمر من حيث لا يشعر ، فإذا رأى أبراجه بين يديه ذعرًا شديدًا وصاح صيحة عظيمة ، وانكفأ راجعًا إلى قريته لا يلوى على شيء ، وكثيرًا ما قضت أمه النهار كله حاملة على يدها الطعام تنتش عنه في كل مكان ، حتى تراه ملقى بين الأحجار ، على ضفة نهر ، أو في سفح جبل ، فتضع الطعام بين يديه من حيث لا يشعر بكانها ، ثم ترفع يديها إلى السماء ضارعة متخشعة ، تسأل الله بدموعها ورفرافها أن يرد إليها وحيدها ، ثم تعود أدراجها !

مضى الليل إلا أقله ، وسوازن جالسة إلى نافذة قصرها المشرفة على النهر ، تلثقت إلى سرير ابتها مرة وتقلب وجهها في السماء أخرى ، وكان القمر في ليلة تيمه ، فظلت تواجيه وتقول :

(١) اليعاقير : جمع يفتور ، وهو الظئى بلون التراب .

« أيها القمر السارى في كبد السماء ، ها أنذا أراك في ليلة تيمك وحدى للمرة الرابعة والعشرين ، فهل يعود إلى خطيبي « جوستاف » فينظر إليك معى كما يفعل من قبل ؟ »

« لقد كنت لي أيها الكوكب النير نعم المعين في ليالي الوحشة على همومي وأحزاني ، فهل تستطيع أن تحدثني عن « جوستاف » أين مكانه ومتى يعود ؟ وهل نلتقى قريبًا فتم بذلك يدك عندي ؟ »

« حدثني عنه ... هل يذكرني كما أذكره ؟! وهل يحفظ عهدي كما أحفظ عهده ؟! وهل يجلس إليك حينًا فيسألك عنى كما أسألك عنه ؟ فإن فعل ، فقل له : إن ابنته جميلة جدًا جمال الابتسامه الحائرة في فم الحسناء ، ويضاء بياض القطرة الصافية في الزريقة الناصعة تحت الأشعة الساطعة ، وقل له : إنها لا تهتف باسم غير اسمه ، ولا يتسم لرسم غير رسمه ، وإنه إن رآها أغتته رؤيتها عن المرأة الجلوة ؛ لأنه يرى صورته في وجهها كما تتشابه الدميان المصوبتان في قالب واحد . »

ولم تزل تناجي القمر بمنزل هذا النجاء حتى رأته ينحدر إلى مغربه ، فودعته وداعًا جميلًا ، وقالت : « إلى الغد يا صديقي العزيز . » ثم قامت إلى سرير ابتها ، فحنت عليها برفق وقبّلها في جبينها قبلة المساء ، وذهبت إلى مضجعها ، وما هو إلا أن غيبت بجفنها السنة الأولى من النوم ، حتى أسلمتها أحلامها إلى أمانها وآمالها ، فرأت كأن « جوستاف » قد عاد من سفره فاستقبلته هي وابتها على باب القصر ، فنزل من مركبته وضمهما معًا إلى صدره ضمًا شديدًا ، وظل يقبلهما ويكي فرحًا وسرورًا .

فإنها المستغرقة في حلمها هذا ، إذ شعرت بيد تحركها فانتبهت ، فإذا صدر النهار قد علا ، وإذا خادمتها واقفة على رأسها ضاحكة : « يا صاحبة ... »

« بشراك يا سيدتي فقد حضر سيدي . »
 فاستطيرت فرحاً وسروراً ، وقالت : « أحمدك اللهم فقد صدقت
 أحلامي . » وأسرعت إلى غرفة ملابسها فبدلت أثوابها ، ثم دخلت عليه في
 غرفته باسمته متهللة تحمل ابنتها على يدها ، فرأته واقفاً في وسط الغرفة متكئاً على
 كرسي بين يديه ، فهرعت إليه . ولكنها ما دنت منه ، حتى تراجعت حائرة
 مدهوشة ؛ لأنها رأت أمامها رجلاً لا تعرفه ولا عهد لها به من قبل ، لا بل هو
 بعينه ، ولكنها رأت وجهها صامتاً متحجراً لا تلمع فيه بارقة ابتسام ، ولا تجرى
 فيه نظرة بشاشة فأنكرته . إلا أنها تماسكت قليلاً ومدت إليه يدها تحييه ، فمد
 إليها يده بتأقل وفنور ، كأنما ينقلها من مكانها نقلاً ، ولم يلق على وجه
 الطفلة — وكانت تبتسم إليه وتمد نحوه ذراعها — نظرة واحدة ، وكانت أول
 كلمة قالها لها :

« أباية أنت في القصر حتى اليوم !؟ »
 فازدادت دهشة وحيرة ، ولم تفهم ماذا يريد ، وقالت له :
 « وأين كنت تريد أن تراني يا سيدي ؟ »
 قال : « في هذا القصر ، كما تركتك ، ولكنني أظن أنك لا تستطيعين البقاء
 فيه بعد اليوم . »
 قالت : « لماذا ؟ »
 قال : « لأن زوجتي قادمة إليه اليوم ، وربما كانت لا تحب أن ترى فيه من
 يزعبه وجودها . »

هنالك شعرت أن جميع ما كان ينبعث في عروقها من الدم قد تراجع كله
 دفعة واحدة إلى قلبها ، فأصبح وحده الواجب^(١) الخفاق من دون أعضائها

(١) وَجَبَ القلب : خفق .

وأوصالها جميعاً . ولكن المصيبة إذا عظمت جلت عن البكاء والأنين ، فلم
 تصيح ولم تضطرب ، بل نظرت إليه نظرة طويلة هادئة ، ثم التفتت إلى ابنتها
 وقالت له :

« وما ترى في ابنتك هذه ؟ »

قال : « ليس لي ابنة أيتها السيدة ولا ولد لي ؛ لأنني لم أتزوج إلا منذ ثلاثة
 أيام ! فخذى ابنتك معك ، وعيشي معها حيث تشائين ، وقد تركت لك
 هذا الكيس على المنضدة ، فخذيه واستعيني به على عيشك ، وتركها
 ومضى . »

لم تلق على المنضدة نظرة واحدة ، ومشت تتحامل على نفسها حتى
 وصلت إلى غرفتها ، وهنالك انفجرت باكياً ، وقالت : « واسوأناه ! إنه
 يعطيني ثمن عرضي . » وسقطت مغشياً عليها .

فلم تستفق حتى أظلم الليل ، ففتحت عينيها فإذا ابنتها تبكي بين ذراعي
 الخادمة ، وإذا الخادمة تبكي لبكائها ، فضمتها إلى صدرها ساعة ، ثم قامت
 إلى غرفة ملابسها وأخذت تفتش عن أثوابها القروية التي دخلت بها هذا القصر
 منذ ثلاثة أعوام ، وكانت تخفيها عن أعين الناس حياءً وخجلاً ، فخلعت
 أثوابها ولبسته ، ولم تبق في معصمها ولا في جيدها لؤلؤة ولا ماسة إلا ألقت
 بها تحت قدميها . واحتملت طفلتها وخرجت تحت ستار الليل تترنخ^(١) في
 مشيتها كأنما تمشي على رملة ميثاء^(٢) .

وما تجاوزت عتبة الباب ووصلت إلى الموضع الذي كانت واقفة فيه في
 حلمها هي وابنتها منذ ساعات تنتظر خطيبها ، حتى لحت على البعد مركبة

(١) تَرْنَخُ : تمايل من السكر وغيره . (٢) الميثاء : البينة .

فخمة مقبلة على القصر تحمل الركيز وامرأة بجانبه ! فأغمضت عينها وتسللت تحت جدار القصر ، ومضت في سبيلها .

لا يعلم إلا الله ما كانت تحمل هذه الفتاة المسكينة بين جنبها في تلك الساعة من هموم وأحزان ، فقد خرجت مطرودة من القصر التي كانت تظن منذ ساعات أنها صاحبته ، وتولى طردها من كانت تزعم في نفسها أنها أحب الناس إليه ، وآثرهم عنده ، واستحالت في ساعة واحدة من فتاة شريفة ذات خطيب شريف إلى امرأة عاهرة ذات ولد مريب ، وأصبح مستحيلًا عليها أن تعود إلى بيتها القديم بعارها ؛ فترى وجه ذينك الشخصين اللذين أحسنا إليها كثيرًا وأحبهاها حبًا جمًّا فأساءت إليهما وغدرت بهما ، فقد سُدَّتْ دونها السبل وأظلم ما بينها وبين العالم بأجمعه فما من رحمة لها في الأرض ، ولا في السماء ! ذلك ما كانت تحدث نفسها به ، وهي سائرة تحت سوار القصر سير الذاهل المشدوه لا تعرف لها مذهبًا ولا مضطربًا ، حتى رأت رأس ابنتها يميل به الكرى ، فمشت إلى ربوة عالية على ضفة النهر الجاري على مقربة من القصر ، فأضجعتها فوق عشبها ، وأسبلت عليها رداءها ، وجلست بجانبها تفكر في مصيرها .

فإنها لجالسة مجلسها هذا ، وقد سكن الليل وسكن كل شيء فيه إلا ضوء القمر المنبعث في أجواز الفضاء ، ونسمات الهواء المترقرة على صفحات الماء ، إذ شعرت كأنها تسمع بالقرب منها هاتفًا يهتف باسمها بصوت ضعيف ، فالتفتت حيث سمعت الصوت فإذا شبح أسود ممتد بين صخرتين على ضفة النهر ، كأنه إنسان نائم فارتاعت وفزعت ، ثم سمعت الصوت يتكرر بنغمة واحدة . فأهمها الأمر ونهضت من مكانها وأخذت تدنو من الشبح رويدًا رويدًا حتى دانت ، فإذا هو إنسان في زى المساكين مُستلقٍ على ظهره

شاخص يبصره إلى جدار القصر . فذهبت بنظرها حيث يذهب ، فإذا عينا عالقة بنافذة غرفتها التي كانت تجلس إليها كل ليلة ، عجبت لذلك كل العجب ، وخفق قلبها خفقًا متداركًا ورأته يضم إلى صدره هنة بيضاء أشبه بالرقعة ضمًّا شديدًا ، فأكبت عليه لتبينه ، وترى ما يضم إلى صدره ، فإذا الرقعة رسمها ، وإذا هو « جلبرت » يجود بنفسه ، ويردد بصوت خافت متغلغل كأنه أصوات المعذنين في أعماق القبور :

« الوداع يا سوزان ! الوداع يا سوزان ! »

ففهمت كل شيء ، فصرخت صرخة عظمى ، دوى بها الفضاء وقالت :

« آه ! لقد قتلتك يا ابن عمى . »

ثم سقطت على يده تقبلها وتبللها بدموعها ، وتقول : « ها أنذا يا جلبرت » جائية تحت قدميك ، فارحمني واغفر لي ذنبي ، فقد أصبحت امرأة بائسة شقية ليس على وجه الأرض من هو أحق بالرحمة مني . »
وكأنما أحس بنغمة صوتها فارتعد قليلاً ، ثم مال بنظره نحوها حتى رآها ، فسقطت من جفنه دمعة حارة على يدها كانت آخر عهده بالحياة ، وقضى :
ولما دنا مني السياق (١) تعرضت

إليّ ودوني من تعرُّضها شغل

أنت وحياض الموت بيني وبينها

وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

جئت سوزان بجانب جثة جلبرت ساعة ، قضت فيها ما يجب عليها لابن عمها وخطيبها وعشيقها الذي أحبه حبًّا لم يحبه أحد من قبله أحدًا حتى مات

(١) السياق : نزع الروح .

حسرة عليها ، ثم استفاقت فذكرت ابنتها ، وأنها تركتها على تلك
الريوة نائمة وحدها فعادت إليها مسرعة ، وقد قررت في نفسها أمرًا .
« لا أعرف أحدًا من الناس أوصيه بك يا بنتي ؛ لأن أباك أنكرك ولأن
الرجل الوحيد الذى كان يحبني في هذا العالم ذهب لسبيله ، ولكنى أعلم أن
لهذا الكون إلهاً رحيماً يعلم دخائل القلوب وسرائر النفوس ، ويرى لوعة
الحزن في أفئدة المحزونين ولاعج الشقاء بين جوانح الأشقياء ، فأنا أكل أمرك
إليه وأتركك بين يديه فهو أرحم بك من جميع الرحماء .
« لا أستطيع أن أعيش لك يا بنتي ، فإن أحدًا من الناس لا يغفر لي الذنب
الذى أذنبته ، حتى الذى أغرائني به وشاركني فيه ؛ فأنا ذاهبة إلى ذلك العالم
العلوى المملوء عدلاً ورحمة ؛ لعلى أجد فيه من يغفر لي ذنبي إن كنت بريئة ،
ويرحمنى إن كنت مذنبه .

« لا أحب أن تكون حياتي يا بنية شؤماً على حياتك ، ولا أن يأخذك الناس
بذنبى كلما رأوك بجانبى ، فأنا أتركك وحدك في هذا المكان لعل راحماً من
الناس يمر بك فيعطف عليك ، ويضمك إليه ، من حيث لا يعلم شيئاً من
أمرك ، فتعيشين في بيته سعيدة هانئة ، لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه ،
ولا أمك فتؤلمك ذكراها .

« اللهم إن كنت تعلم أن هذه الطفلة ضعيفة عاجزة تحتاج إلى من يرحمها
ويكفل أمرها ، وأننى قد أصبحت عاجزة عن البقاء بجانبها أرحاها وأحنو
عليها ، وأنها بريئة طاهرة لا يدها في الذى أذنبه أبواها ، فارحمها وأسبل عليها
ستر معروفك وإحسانك ، وهى لها صدرًا حنونًا ، ومهدًا لينا ، وعيشًا
رغيدًا .

ثم بدأت تسرو ثيابها عن جسمها ، وتغطى بها جسم ابنتها وقاية لها من برد

الليل ، حتى لم يبق على جسدها إلا قميص واحد ، تركته ليكون سترًا لعورتها
عند انتشال جثتها ، ثم حنت على الطفلة برفق ، فلثمتها في جبينها لثمة أودعتها
كل ما في صدرها من حب ورحمة ورفق وحنان ، ثم هتفت قائلة :
« الوداع يا ماري . سنلتقى عما قليل يا جلبرت . المغفرة يا كاترين . »
وألقت بنفسها في الماء .

قضى المركز الليلة الأولى من ليالى شهر العسل مع عروسه في شرفة القصر
يسمران ويتناجان ، ويذهبان بنظرهما حيث تذهب خضرة الأرض وتمتد
زرقة السماء وتطرده مياه النهر ، ويتقلبان بين سعادة حاضرة وأخرى مرجوة ،
ويرشفتان من كل كأس من تلك الكؤوس رشفة تكثراً بما عندهما منها ، حتى
ثملاً واستغرقتا وأصبحا لا يشعران بشيء مما حولهما ، فلم يستفيقا حتى سمعا
دوى الريح في أبراج القصر ، وفي ذوائب الأشجار ؛ فعلما أنها الزوبعة فنهضا
من مكانهما ليذهبا إلى مضجعهما .

فإنهما لواقفان موقفهما هذا ، إذ لمحت المركيزة في وجه المركز دهشة
واضطرابًا ، ورأته يلتفت التفاتًا شديدًا كأنما يسمع لصوت غريب ، فسألته
ما باله . فلم يجبها ، وأطل من الشرفة على النهر ، فرأى كما رأت هي على نور
القمر ، طفلة واقفة على الضفة تصيح وتعول ، وتشير بيدها نحو الماء ،
وتقول : « أماه ! أماه ! » فنظرا حيث تشير ، فإذا امرأة عارية إلا قليلاً
تنخبط ، في لجج الماء تنخبط الغرق .

فترك المركز مكانه ونزل يعدو إلى النهر ، وهو يقول : « وا لهفتاه إن
كانت هي . » وصاح بخدمه أن يتبعوه ففعلوا .

حتى بلغ موقف الطفلة فعرف أنها ابنته ، وأن الغريقة سوزان ، فأظلم
الفضاء في عينيه وأشار إلى أحد خدمه أن يعود بالطفلة إلى القصر ، وأمر الباقين

من شرقه القصر ليلة الغرق لا يفارقه ليله ونهاره . فكان كلما مشى في طريق ،
توهم أن أمامه نهراً هائلياً تنجيط سوزان في لُجته ، وتصيح ماري على ضفته ،
فيصرخ قائلاً : « ليك يا سوزان ! » ويندفع إلى الأمام كأنما يريد أن يلتقي
بنفسه في النهر الذي توهمه لينجى الطريقة التي تجلبها ، فينأى عنه المنظر كلما
دنا منه حتى ينال منه التعب ، فيسقط حسيماً طريحاً .

وكان يتم على وجهه أحياناً حتى يصل إلى ضاحية قرية « ليني » فوري
امرأة عجوزاً مكبّة على قبر بين يديها تبكي وتنتحب ، فيعلم أنها كاترين ، وأن
القبر قبر قتلاه ، فيترجع خائفاً مذعوراً ، ويصرخ قائلاً : « الرجعة الرجعة !
المغو المغو ! »

وكثيراً ما كان يراه نساء الفلاحين ساقطاً في بعض الأماكن التي كن يرين
فيها جليبرت ، فيقلن : « لقد انقسم الله للشهيد المسكين والشهيدة
المظلومة . » وكان منظر الماء يهيجه أكثر من كل منظر سواه ، فإذا رآه تار
واضطرب وتهاوت عليه يريد اقتحامه ، لولا أن يتداركه من يراه من المارة .
ولم يزل هذا شأنه حتى رأى الناس جثته في صباح يوم من الأيام طافية على
وجه النهر في المكان الذي غرقت فيه سوزان ؛ فعلموا أنها نهاية الجراء .
مرت على هذه الحادثة أعوام طوال ، ولا يزال عجائز قرية « ليني »
والقرى المحيطة بها يحفظها حتى اليوم ويمكن كلما ذكرها ، ويرونها ليناتهن
حفيهاهن عبرة يعتبرن بها كلما طاف بين طائف من شرور الرجال .

أن يسبحوا وراء الطريقة ، ثم سقط في مكانه واهماً بها لئلا ، وكان قد اجتمع
على الضفة خلق كثير من الفلاحين رجالاً ونساء ، فسبح بعضهم وراء
الساحين ، ووقف الباقون حول المركز ينتظرون رجعة الله واحسانه .
انتشر الساحيون في كل مكان ، ومشت وراءهم عيون الناظرين وقلوبهم ،
فقامت بينهم وبين الأمواج المتلاطمة معركة هائلة ، كانوا يظفرون فيها مرة
وترجعون أخرى ، وكانوا إذا لاح لهم على البعد قميص الطريقة أو شعرها ،
عظم عندهم الأمل ، فاندفعوا وراءها مستبسلين مستقلين يعالون جبال
الأمواج المعرضة في طريقهم ، حتى إذا دنوا من المكان الذي لحوها فيه
لا يجدون أمامهم شيئاً ، ثم لا يلبث الموج أن يكر عليهم ، فيدفعهم إلى الضفة
كما كانوا .

وما زالت الفترات بين ظهور الطريقة واختفائها تتسع شيئاً فشيئاً حتى
غابت عن الأعين ولم تظهر ؛ فهبط الساحيون وراءها ولبثوا ساعة يرسمون
ويظفون ، ثم ظهروا على وجه الماء يجمعونها على أيديهم ولا يعلم الناس أحيّة أم
ميتة ، وما زالوا يسبحون بها وأصوات الدعاء لها والبكاء عليها ترن في الضفتين
فتردد رنينها آفاق السماء ، حتى وصلوا بها إلى الضفة ، فألقوها على الأرض
فإذا هي ميتة .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت الضفة مائتاً قائماً يكي فيه
النساء على الشهيدة والرجال على الشهيد .

لم ينتفع المركز بنفسه بعد هذا اليوم كما لم ينتفع جليبرت بنفسه من قبل ،
فقد مرضت ابنته على أثر تلك الحادثة مرضاً شديداً ، فلم تلبث أن لحقت بأمها
بعد ثلاث ليال ، واستحال الحلب الذي كانت تفسره له وزوجه إلى بعض
واحتمار ؛ فهجرته وسافرت إلى « نيس » ولزمه خيال ذلك المنظر الذي رآه

تألّفوا الشمس في دارتها ، وقد جلس على يمينه رجل يلبس مُسوحًا^(١) وعلى يساره آخر يلبس طيلسانًا^(٢) ، فسألت عنهما ، فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير ، وأن الذي على يساره قاضي المدينة ، ورأيتَه ينظر في ورقة بيضاء بين يديه ، فأكبّ عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : « ليؤتَ بالمجرمين . »

ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء ، فتكشف عن مثل خلق الليث منظرًا وزئيرًا ، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخًا هرمًا تكاد تسلمه^(٣) قوائمه ضعفًا ووهنًا ، فسأل الأمير :

« ما جريمته ؟ »

فقال الكاهن : « إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غِرارة^(٤) من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء المساكين . »

فضج الناس ضجيجًا عاليًا وصاحوا : « ويل للمجرم الأثيم ، أيسرق مال الله في بيت الله ؟ » ثم نودي بالشهود . فشهد عليه رهبان الدير ، فسأَرَ الأمير مع الكاهن هنيئة ، ثم صاح :

« يقاد المجرم إلى ساحة الموت ، فتقطع يمناه ثم يسراه ، ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعامًا للطير الغادي والوحش الساعب ! » فجننا الشيخ بين يدي الأمير ، ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه ، فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه .

ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره ، أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفًا وقرقًا ، حتى وقفوا به بين يدي الأمير . فسأل :

(١) المُسوح : جمع منج بالسكر ، وهو ثوب من شعر بله الرهبان .
(٢) الطيلسان : السوشاح أو الشال .
(٣) أسلّم : تحذّل .
(٤) الغِرارة : وعاء من الخيش ونحوه لحفظ الحبوب .

العقاب

« موضوعة »

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأنني هبطت مدينة كبرى ، لا علم لي باسمها ، ولا بموقعها من البلاد ، ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه ، فمشيت في طرقها بضع ساعات ، فرأيت أجناسًا من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيّل إليّ أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة ، وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه . فلم أزل أنتقل من مكان إلى مكان ، وأداول^(١) بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة ، لم أر بين البنى أعظم منها شأنًا ولا أهول منظرًا ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى في أفنيئها وأبهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوبًا ، فسألت بعض الواقفين : « ما هذه البنية ، وما هذا الجمع المحتشد على بابها ؟ » فعلمت أنها قصر الأمير ، وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم . وما هي إلا ساعة حتى نادى مناد في الناس : أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حيث انتهى بي المجلس ، فرأيت الأمير جالسًا على كرسي من الذهب يتلألأ في وسط الفناء

(١) داوّل كذا بينهم : جعله متداولًا ، تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء .

« ما جريمته ؟ »

فقال : « إنه قاتل . ذهب أحد قواد الأمير إلى قرية لجمع الضرائب ، فطالبه بأداء ما عليه من المال ، فأبى وتوقح في إباته ، فانتهره القائد فاحتدم غيظًا ، وجرده سيفه من غمده ، وضربه به ضربة ذهبت بحياته . »
فصاح الناس : « يا للفظاعة والهول ! إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه . » ثم جرى بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ، فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه ، وقال : « يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصلب على أعواد شجرة ، ثم تُفصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم . » فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن .

وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسنًا وبهاءً ، لولا سحابة غبراء من الحزن تندجى فوق جبينها ، فقال الأمير :

« ما جريمتها ؟ »

فقال القاضي : « إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب ، كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم . »
فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : « القتل القتل ! الرجم الرجم ! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى . »

فقال الأمير : « أين شاهدها »

فدخل قريبها الذى كشف أمرها فشهد عليها . فهمس القاضي فى أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير : « تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت ، فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ، ولا على عظمها قطعة لحم . » فهلل الناس وكبروا إعجابًا بعدل الأمير وحزمه ، وإكبارًا لسلطوته وقوته ، وهتفوا له

ولكاهنه وقاضيه بالدعاء .

ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ، ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين ، وخرجت على أثرهم حزينا. مكتئبًا أفكر فى هذه المحاكمة الغريبة ، التى لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم . وأعجب للناس فى ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة ، وغلوهم فى تقديسها وإعظامها ، وإغراقهم فى الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلمًا ، رحمة أو قسوة ، وأردد فى نفسى هذه الكلمات :

« ليت شعرى : ألا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التى ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه ، إن قدر له أن يقف فى موقف مثل موقفهم أمام قضاة مثل قضاتهم ؟ »

« ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعًا عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعه أهل بيته ؟ »
« ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة فى حياته ، فيرحم القاتلين عند النظر فى جرائمهم ؟ »

« ألم يسقط إلى يد الكاهن يومًا من الأيام دينار من غير حله ، فتخف لوعة سفه على الغرارة المسروقة من ديريه ويغفر هذه لتلك ؟ »
« ألم تزل قدم القاضي مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته ، فتهدأ ثورة ضيه على الساقطين والساقطات ؟ »

« من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون فى أرواح العباد أمواهم كما يشاؤون ، ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون ؟ »

« إنهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا بأملأك مطهرين ، ولا يحملون في أيديهم عهدًا من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصبتهم بينهم . فبأى حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة ؟ ومن أى قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التى يستأثرون بها من دون الناس جميعًا ؟

« من هو الأمير ؟ أليس هو المستبد الأعظم فى الأمة ، أو سلالة المستبد الأعظم فيها ، الذى استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلمًا يصعد عليها إلى العرش الذى يجلس عليه ؟

« من هو الكاهن ؟ أليس هو أبرع الناس وأمههم فى استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ؟

« من هو القاضى ؟ أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق ؟

« ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أحيانًا صالحين وأبرارًا طاهرين ؟

« عجب جدًا أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرمًا ، فإذا قتل الأمير القاتل سُمى عادلاً ، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيسمى لصًا . فإذا أمر القاضى بقطع أطرافه والتثيل به سُمى حازمًا . وأن تسقط المرأة سقطتة ربما ساقها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزعة من نزعات الشيطان ، فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها ، فإذا رأوا مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب ، أنسوا بمشهدها ، وأعجبهم موقفها ومصيرها !

« كما أن النار لا تطفىء النار ، وشارب السم لا يعالج بشره مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ؛ كذلك لا يعالج الشر

بالشر ، ولا يمحي الشقاء فى هذه الدنيا بالشقاء .

ولم أزل أحدث نفسى بمثل هذا الحديث ، حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير فى جوها أسراب من الطير غادية رائحة ، فاخترقتها حتى بلغت أبعد بقاعها ، فرأيت منظرًا هائلًا لا يزال أثره عالقًا بنفسى حتى الساعة .

رأيت الشيخ جنة معفرة بالتراب لارأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حوالبه كأنها نواذب يندبته حاسرات . ورأيت الفتى مشدودًا إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها ، وقد سال جميع ما فى عروقه من الدم حتى أصبح شبحًا مائلًا ، أو خيالًا ساريًا . ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم ، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين ، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلًا قليلًا ، حتى غاب عن نظري كل شئ ؛ فسقطت فى مكاني لا أشعر بشيء مما حولى ، فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل .

ففتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو منى رويدًا رويدًا ، فارتعت لمنظره ، وفزعت إلى ساق الشجرة فاخترت وراه ؛ فما زال يتقدم حتى صار بجانبى ، فأشعل مصباحًا صغيرًا كان فى يده ، فتبينته على نوره ، فإذا عجوز شمطاء فى زى المساكين وسحتهم ، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ ، فجثت بجانبه ساعة تكيه وتندبه ، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته ، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفتها فيها ، وقامت على قبره تودعه وتقول :

« فى سبيل الله ما لقيت فى سبيلى وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد

المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسديك ، وجسد ضمه قبرك ،
 فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً ، وأطهرهم لسائناً ويداً ، وأشرفهم قلباً
 ونفساً ؛ فاذهب إلى ربك لتلقى جزاءك عنده ، واطلب إليه الرحمة لجميع
 الناس حتى لقاتليك وظالميك ، واسأله أن يلحقني بك وشيكا ، فلا شيء
 يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقائك !»

فأبكاني بكاؤها وأحزني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما
 تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء . وأحببت أن أقف على قصتها
 وقصته ، فبرزت من مخبي ومشيت إليها ، فارتاعت لمرآى عند النظرة
 الأولى ، ثم سكتت كأنما ذكرت أن لا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي
 نزل بها .

فابتدرتها بقولي : « لا تراعى يا سيدتي ، فإنني رجل غريب عن هذا البلد
 لا أعرف من شأنه ، ولا من شأن أهله شيئاً ، وقد رأيت الساعة موقفتك على
 هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك ، وتمنيت لو
 أفضيت إليّ بذات نفسك ، علني أستطيع أن أكون لك عوناً على همك .»
 فاستعبرت باكية وأنشأت تحدثني وتقول : « إن زوجي لم يكن في يوم من
 أيام حياته لصاً ولا سارقاً ، بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتقر
 ساعة واحدة عن السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان
 واحده ، فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعدما كان يستقل بحمله من الهم . وما
 هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبة من الدهر ، حتى نزلت به نازلة الموت فذهبت
 بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم
 العاشرة من عمره . وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه همُّ
 الكبير وهمُّ الشكل ؛ فأصبح عاجزاً عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد

الفينة (١) ، وأصبحنا جميعاً في حالة من الشقاء والبؤس ، لا يعرف مكانها من
 نفوسنا إلا من ألم به في حياته طرف منها ، حتى طلعت علينا شمس يوم من
 الأيام ، وليس في يدنا ما نقوم به أصلاب صغارنا ، ولا ما نعللهم به تعليلاً ،
 فأسقط في يدنا ، وعلمنا أننا هالكون جميعاً إن لم يتداركنا الله برحمته من
 عنده .

« فلم أربداً من أن أبدأ إلى الخطة التي يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت
 إلى الناس أتعرض لمعروفهم وأستندى ماء أكفهم ، فلم أجد بينهم من يحسن
 إليّ بجرعة أو مضغعة ، ولا من يدلني على سبيل ذلك . وكان أكبر ما حال بيني
 وبينهم وصرف وجوههم عني ، أني ألبس مرقعة الشحاذين ، ولا أحمل
 رَكْوَتهم (٢) فعدت إلى منزلي وبين جنبي من الهم ما الله به عليم ، فرأيت
 الأطفال سهداً يتضاعون (٣) جوعاً ، ورأيت الشيخ جالساً بينهم ييل تربة
 الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يختم ، ولو
 أن شخص الموت برز إليّ في تلك الساعة ، لكان منظره أهون على نفسي من
 منظر هؤلاء الصبية ، وهم يحقدون في وجهي عند دخولي ، ويدورون حولي
 ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ، وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل
 والكمد الشامل .

« فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت له : إن في دير المدينة كما يزعمون مالاً
 للصدقات ، يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين ، فلو ذهبت
 إليه وكشفت له خلعتك وسألته أن يمنحك علالة تستعين بها على أمرك لرجونا
 أن نطفئ لوعة هؤلاء الأطفال المساكين .

(١) الفينة : الساعة والحين . (٢) الرَكْوَة : وعاء للماء على صورة الزورق يحمله
 الشحاذون . (٢) يتضاعون من الجوع : يتضورون منه .

« فاستنار وجهه بنور الأمل ، وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه ، فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه ، فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبتت الأيام في جفنيه القريجين من دموع ، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلاً ، وقال له : إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل ، وما كنت في يوم من أيام رغدك ورخائك من المحسنين إليه ؛ فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك ، فأبواب الجرائم أوسع منها ! »

« فخرج من حضرته كئيباً محزوناً لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككفة الحابل^(١) أو أفحوص^(٢) القطة ، حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة^(٣) دقيقتي فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحدثه لولا العوز والفاقة ، ثم أدركه الحياء ؛ فأغضى عنها واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها ، فوقع نظره عليها مرة أخرى ، فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه ، فلم يستطع ، فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج ، ولا أفقر مني ، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش . »

« ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهداً مترجماً ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل ، وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه

(١) الحابل : الصائد لأنه يرمى الحبال للصيد ، وكيفته : حبالته . (٢) الأفحوص : حفرة تحفرها القطة أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها . (٣) الغرارة : وعاء من الخيش ونحوه يُحفظ فيه الحبوب . (٤) الألقاء : جمع لقي ، واللقي الشيء الملقى المطروح

عن ظهره . ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء^(١) تحت جدران البيت يتضورون جوعاً ، فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى ، حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ، ولا تعلق ، وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة ، فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله ، وإذا نفثة من دم دفقت من صدره فانحدرت على رداءه ؛ فسقط في مكانه مغشياً عليه .

« ولم يزل على حاله تلك ، حتى مرَّ به العسس^(٢) فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم : الغرارة ، الغرارة ! وينشدونها في أنحاء الدير حتى يمشوا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فحرفوا ضالتهم ، وما هي إلا ساعة حتى كانت الغرارة في الدير ، وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فوا أسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوماً ، ووارحتماه لي ولأطفال البؤساء المساكين من بعده ! »

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف رداءها ، ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يا رفيق صباي ، وعماد شيخوختي ، الوداع يا خير الأزواج وأبرَّ العشراء ، الوداع حتى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه . » ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في أعماق الظلام ، حتى رأيت شيئاً آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول ، وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته اختلاساً ، فاخترت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع ، وكان القمر

(١) الألقاء : جمع لقي ، وألقى الملقى المطروح . (٢) العسس : الطائفون بالليل لحراسة الناس أو كشف أهل الريبة .

قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعته ، ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى ، فأريت الشبح على نوره . فإذا فتاة جميلة باكية لم أرفى حياتي دمعة على خدِّ أجمل من دمعتها على خدها ، فدارت بعينيها لحظة ، حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة ، فمشيت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعالجت عقده حتى انحلت ، ثم احتملته على يدها وأضجعت على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ، ثم هتفت صارخة : « واشقيقاه ! » وسقطت فوفه تضمه وتقبله وتلثم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيراً متداركاً ، كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثاً ، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلاً ثم هوت بجانبه هوى الجذع الساقط لا حراك بها .

فأهمنى أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه ؛ فمشيت إليها حيث صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها ؛ فعلمت أنها حية ، فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة ، فأرأنتي بجانبها فنظرت إليّ نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوي وقالت :

« على من تبكى أيها الرجل الغريب ؟ »

قلت : « أبكى عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين . »

قالت : « نعم . إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدتي كثيراً ؛ فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس وامتعة الأفتدة والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قتلوه ؛ فما كان قاتلاً ولا مجرمًا ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه ، فقطع تلك اليد الممتدة إليه ، وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لا ستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أجرم من ذاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله . »

قلت : « هل لك أن تقصى عليّ قصته يا سيدتي ؟ »
قالت : « نعم . نزل قرينتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتًا بيتًا حتى بلغ منزلنا ، وكنت واقفة على بابه فنظر إليّ نظرة مريبة طار لها قلبي رعبًا وفرقًا ، ثم سألتني عن أخي فأرشدته إلى مكانه ، فسأله عن المال فاستنساها^(١) إياه أيامًا قلائل حتى يبيع غلته ، فأني إلا أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء . »

« وغمزني بعض أعوانه فداروا حولي ، وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير ، فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات ، ففزعت إلى أخي ولصقت به ، فوقف بيني وبين الرجل ، وقال له : لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال ، وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعًا ؛ فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك . فقال له : لا بد لي من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد ، فإن أبيت فحياتك فداء عنها . »

« فغضب أخي غضبة انتفض لها في جبينه عرق ، لم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم ، وقال له : فلتكن حياتي فداء لشرفي . ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ، ووقف في مكانه لا يرحه وسيفه يقطر دمًا حتى غلّه^(٢) الأعوان واحتملوه إلى السجن ، فتلكت حياته يا سيدتي وذاك مماته ، فلئن بكيتي ، أنا أبكى فتى الفتيان همة ونجدة ، ونادرة الرجال عزة وإباءً ، وأفضل الإخوة رحمة وحنانًا . »

(١) استنساها غريمه اللئيم : طلب منه أن ينسه أي : يؤجله له .
(٢) غلّه : وضع في عنقه الغل .

ثم قالت : « هل لك أن تعينني يا سيدي على مواراته قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصبحت واهية متضعضة ، لا أقوى على شيء ؟ »

فقممت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها ، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة ، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة ، حتى فارقت مكانها ، فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها ، ثم مدت يدها إليّ وقالت :

« شكرًا لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلما يجد فيه مستعين معينًا ، ومضت لسيلها . »

فأتبعها نظري حتى اختفت آخر طية من طيات رداها ، فعدت إلى نفسي ، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها ، فهاجني منظرها ، وقلت في نفسي : « إنني لا أدخر لنفسي عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب . » فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ، ثم ألقيت عليها رداي واحتملتها على يدي حتى أضجعتها في حفرتها .

فإني لأحثو عليها التراب إذ شعرت بحركة ورائي ، فالتفت فإذا فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه ، فابتدرني بقوله : « من صاحب هذا القبر الذي تحنو ترابه يا سيدي ؟ »

قلت : « فتاة مرجومة ، رأيت جثتها الساعة منبوذة في هذا العراء ، فرحمت مصرعها ، واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه . »

فقال : « إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأنًا ، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها ؟ »

قلت : « نعم شأنك وما تريد . »

وتنحيت قليلاً ، فدنا من القبر وجثا فوق تربته ، وظل يناجي الدفينة نجاء خلعت أن الكواكب تردده في سمائها والرياح في أجوائها ، حتى اشتفت نفسه ، فقام إلى التراب يبيله عليها حتى واراها .

ثم التفت إليّ وقال : « لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيرًا بما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها . » وأراد الرجوع فاستوقفته ، وقلت له : « وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟ »

فانفرجت شفثاه عن ابتسامه مرة ، ونظر إليّ نظرة هادئة مطمئنة وقال : « نعم يا سيدي . ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها . أنا الرجل الذي اهتموها به ، وأستطيع أن أقول لك ، كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعاً إليه ظلامتها : إنها بريئة مما رموها به ، وإنها أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية . »

« لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة ، وأحببتني كذلك ثم شبينا وشب الحب معنا ؛ فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبني ^(١) راضيًا مسرورًا ، حتى إذا لم يبق بيني وبين البناء ^(٢) بها إلا أيام معدودات ، إذ نزلت بأبيها نازلة الموت ، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عامًا كاملاً ، ففعلنا . »

« حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها ، فرآها القاضي فتبعها نفسه فأرسل وراء عمها ، وكان

(١) أخطبه : قَبِلَ خِطْبَتَهُ . (٢) البِنَاءُ بِهَا : الرِّفَافُ إِلَيْهَا .

ولى أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المدهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحراً من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لامع ، فعرض عليه رغبته في الزواج من ابنة أخيه ، فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً ، ولم يتردد في إجابة طلبه . وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشري ، فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : إننى لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يُبل بقولها وقال لها : ستزوجين ممن أريد طائعة أو كارهة ، فلا خيار لك في نفسك إنما الخيار لى فى أمرك وحدى !»

« وما هى إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسَمَّوا يوماً لزوجها ، فما غربت شمس ذلك اليوم ، حتى جمعت ما كان لها فى بيتها من ثياب وحلية ، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أى طريق تسلك . وكان عمها قد رفع إلى القاضى أمر فرارها ، فبث عليها عيونهُ وأرصاده يطلبونها فى كل مكان ، حتى نجحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران ، فأقبل عليها فذعرت لمرآة وتركت حقيبتها مكانها ، وفرت بين يديه تعدو عدواً سريعاً .

« وكنت عائداً فى تلك الساعة إلى منزلى ، فرأيتنى فألقت نفسها علىّ وقالت : إنهم يتبعوننى ، وإنهم إن ظفروا بى قتلونى ، فارحمنى يرحمك الله . فأهمنى أمرها وذهبت بها إلى منزلى وأخفيتها فى بعض حجراته . وما هى إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضى يطلبها طلباً شديداً ، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقنى ، وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر بها ، فصاح : ها هى الفتاة الزانية ، وهذا صاحبها . فأقسمت له بكل محرجة من الأيمان أنها بريئة مما يرميها به ، فلم يصغ إليّ ، وأمر الأعوان فاحتملوها ، وحاولت أن أحول بينهم وبينها ، فضربنى أحدهم على رأسى

ضربة طارت بصوائى فسقطت مغشياً على ، فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمى ، فلزمت فراشى بضعة أيام لا أفيق ساعة ، حتى يتمثل لى ذلك المنظر الذى رأيته ؛ فأشعر بالرعدة تتمشى فى أعضائى ، فأعود إلى ذهولى واستغراقى . حتى أدركتنى رحمة الله فأبلت منذ أمس بعض الإبلال ، واستطعت أن أخرج الليلة من منزلى ، فعلمت ما تم من أمر تلك المسكينة ، فجئت كما ترانى أودعها الوداع الأخير ، وأوارى جثتها التراب ، وما أنا بالسالى عنها ، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها .»

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت فى طياتها جميع معانى النظرات البائسات من حزن ويأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

فما أبعده إلا قليلاً حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم مالبت أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون ، وإذا الساحة وحشة وانقباض ، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة ، ثم تلفعت بردائى ، وألقيت رأسى على بعض الصخور ، وأنشأت أحدث نفسي وأقول :

« ليت شعرى ! ألا يوجد فى هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ، فإن خلت منهما رقعة الأرض ، فهل خلت منهما ساحة السماء ؟

« أجزم الزعيم الدينى ؛ لأنه ضنَّ على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال يسد به جوعته وجوعه أهل بيته ؛ فاضطر الرجل إلى ارتكاب جريمة السرقة ، فعوقب السارق على سرقة ، ولم يعاقب القاسى على قسوته ، ولولا قسوة القاسى ما كانت سرقة السارق .

« وأجزم الأمير ؛ لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بعرضها ، فاضطر أخوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل ، فعوقب الفتى

على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى الإجمام .

« وأجرم القاضى ؛ لأنه أراد أن يكره فتاة لا تحبه على الزواج منه ، ففرت من وجهه فعاقبها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاضى على ظلمه واستبداده .
« وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبرىء مجرمًا ، بل أصبح المجرم قاضى البرىء وصاحب الحق فى معاقبته !

« فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنيرها بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومُزنها ؟ »

ثم التفتُ إلى مصرع المقبورين فوق نظرى على بركة الدم التى اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم فى السماء يتلألأ فوق صفحتها ، فرفعت نظرى إلى النجم ، فإذا هو المريح^(١) يتلهب ويضطرم ، كأنه جمره الغيظ فى أفئدة الموتورين ، فعلق نظرى به ساعة ، ثم رأيت كأنه يهبط من عليائه رويدًا رويدًا ، فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه ، حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل ؛ إذا به يتنفض انتفاضًا شديدًا ، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه وينخرجه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطًا حتى نزل على رأس الشجرة التى تظلل قبور الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء ، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد فى آفاق السماء ، ويقول :

« ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هى الأرض قد ملكت شرورًا وفسادًا ، حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة ، يستطيع أن يأوى إليها ملك من

(١) كوكب ، وهو أيضا « مارس » إله الحرب فى الأساطير .

أملاك السماء .

« ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفًا ، وها هى لحوم الفقراء تنحدر فى بطون الأغنياء انحذارًا ؛ فلا الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانعين .

« ها هم الفقراء يموتون جوعًا ، فلا يجدون من يحسن إليهم . والمنكوبون يموتون كمداً ؛ فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم .

« ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه ؛ فأغمدوا السيوف التى وضعها الله فى أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقلدوا سيوفًا غيرها ، لا هى إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها يفتضحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما يريدون .

« ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، ووضعوا القانون ترسًا أمام أعينهم يصيرون من ورائه ، ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون تحت حمايته ، ولا يُنالون .

« ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ، فحوّلوا معابدهم إلى مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ، ثم يضيئون بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

« ها هم الناس جميعًا قد أصبحوا أعوانًا للأمراء على شهواتهم ، والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعًا نعمة الله ملوكًا ومملوكين ورؤساء ومرؤوسين .

« لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتتقوض المحاكم ، وليعم الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والنجاد والأغوار ، ولتفرق الأرض فى بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والأخيار

والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .
وما انتهى من دعوته تلك ، حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ، ومشت تتدفق في الأرض تدفق السيل المنحدر ، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويعج ، ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئاً فشيئاً ، حتى ضرب بأواجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها ، فصرخت صرخة عظيمة فاستيقظت من نومي ، وكان ذلك في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

الضحية

« مترجمة »

نشأت « مرغريت جوتيه » فقيرة لا تملك مالا تشتري به زوجها ، ولا تجد بين الرجال من يبيعه نفسه بلا مال ، أو يحسن إليها بما يسد ثلثتها ، ويستريح عورتها ، وكان لا بد لها أن تعيش ، فلم تجد بين يديها سوى عرضها ، فذهبت به إلى سوق الشقاء والآلام ؛ فساومها فيه بعض المساومين بأبخس الأثمان ، فباعته إياه كارهة مرغمة ، وكانت من الخاسرين .

ولقد كان جمالها شؤماً عليها ، فلو أنها كانت شوهاء لوجدت في الناس من يرحمها ويخون عليها ، ولكن الجمال سلعة من السلع النافقة (١) . لا يستطيع صاحبه أن ينال ما في أيدي الناس إن كان فقيراً معوزاً ، إلا من طريق المساومة فيه .

لذلك نقت تلك الفتاة المنكوبة على الرجال جميعاً ، وأقسمت أن تتخذ من جمالها ، الذي هو مطمع أنظارهم وقبلة آمالهم ، آلة انتقام تنتقم بها منهم لِعرضها وشرفها .

ولقد برت يمينها بر الوفي بعهدده ، فعاشرت الرجال ولم تحبهم ، ونكبتهم في أموالهم ، وفي أنفسهم ، ولم تأسف عليهم ، ونظرت إلى دموع الباكين تحت قدميها نظرات الغبطة والسرور ، وهي تقول :

(١) نفقت السلعة : راجت ورغب الناس فيها .

« وبع ليكم يا معشر الرجال ، ما كنت أطلب منكم باسم الفضيلة والشرف إلا رغيفاً واحداً لغدائي وآخر لعشائي ، فأبقيتموهما عليّ ، فلما طلبت منكم باسم الرذيلة جميع ما تملك أيديكم من مال ونشأ ، بذتموه لي طائعين مختارين ، فما أصغر نفوسكم وأخس أقداركم !

« ولقد كان في استطاعة أصغركم شأناً ؛ وأهونكم على نفسه وعلى الناس جميعاً ، أن يشتري مني جسمي وقلبي وحياتي بلائمن سوى سدّ خلّتي وصيانة عرضي فلم تفعلوا ، فها هم أولاء اليوم عظماءكم وأشرافكم يخيرون تحت قدمي جئني الكلب الذليل تحت مائدة سيده ، فلا ينالون مني أكثر مما ينال منها !

« أحببتم المال حباً جماً ، فأبيتم إلا أن تتزوجوا ذات مال لتضموا طارفها إلى تليدكم (١) ، فابذلوا اليوم لامرأة مومس لا تمنحكم مالاً ولا حباً جميع ما في أيديكم من فضة وذهب ، حتى لا يبقى لكم طارف ولا تليد .»

ظهرت مرغريت في سماء باريس كوكباً متلألئاً يبعث الأنوار ويهبر الأنظار ، ويملأ أجواز الفضاء بهجة وضياء ، فطاررت حولها العقول طيران النحل حول الزهر ، وسال النضار بين يديها سيلان الجدول المتدفق تحت أشعة الأصيل ، وعنت لها الوجوه الكريمة ، وتعفرت تحت قدمها الجباه الرفيعة ، وأصبحت أعناق الرجال في يدها ، كأنما قد سلكتهم جميعاً في سلك واحد ، ثم أمسكت بطرف السلك تحركه فيتحركون ، وتمسك عنه فيمسكون .

وكان شأنها معهم شأن صاحب الكلب مع كلبه ، لا يشبعه فيستغنى عنه ، ولا يبيعه فييأس منه ، فكانت تملأ نفس عاشقها أملاً ورجاء ، حتى إذا ظن أن قد دنا به حظه ، وأن ليس بينه وبين أمليه إلا أن يمدّ إليه يده فينالّه ، ذادته

(١) الطارف من المال : حديثه ، والتليد : قديمه .

عنه ذود الظامئ المهيمان عن ورده أدنى ما يكون إلى فمه ، فإذا علمت أن اليأس قد بلغ من نفسه ، وأنه قد أزمع أن يركب رأسه إلى حيث لا مرد له ؛ بعثت وراءه شعاعاً من أشعة ابتساماتها العذبة الخلابة فاستردته إليها صاغراً مستسلماً .

وكذلك أصبحت تلك الفتاة الجائعة العارية التي كانت تعوزها بالأمس اللقمة ، وتعيها الخرقه ، سيده باريص وصاحبة عرشها ، ومالكة أزمنة رجالها ، وفاجعة قلوب نساها ، والنجم الخالق الذي تبتهل إليه العيون ، والسر الغامض الذي تحار فيه الظنون .

ذلك ما يعلمه الناس من أمرها ؛ أما ما تعلمه من أمر نفسها ، فهي ترى أن جميع ما يبذلها لها الناس من فضة وذهب ، وأثاث ورياش ، وقصور ودور ، وجياد ومركبات ، لا يساوي دمة واحدة من تلك الدموع التي سكبها على نفسها يوم باعت عرضها ، وأن جميع هذه اللآئ والجواهر والأردية والنيجان التي يهبونها ، إنما يهبونها أنفسهم ليتمتعوا بمنظرها فوق جسمها ، كما يتمتع صاحب الكلب بمنظر القلادة في عنق كلبه ، وما له من ذلك شيء ، فكأنما باعت عرضها بلائمن ولا جزاء !

وكانت تخلو بنفسها حيناً فتذكر أن جميع هذه القلوب الطائرة حولها إنما تطير على جمالها لا عليها ، وأنها إن حرمت هذا الجمال ساعة واحدة انفض الناس جميعاً من حولها ، وأصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم ، لا يعطف عليها قلب ، ولا تبكي عليها عين ، فتبكي بكاء الأشقياء على أنفسهم ، بل ترى أنها شقية مثلهم ؛ لأنها تعاشر من لا تحب ، وتحيا بين قوم لا يحبونها إلا حباً كاذباً .

وربما مرت في بعض غدواتها أو روحاتها بغرفة حارس قصرها وهو جالس

بين زوجته وأولاده يمنحهم حبه وإخلاصه ويمنحونه من ذلك مثل ما يمنحهم ،
فتسنى أن لو كان حظها من هذه الحياة غرفة كهذه الغرفة وزوجاً وأولاداً
كهذا الزوج وهؤلاء الأولاد . ثم لا تقترح على دهرها بعد ذلك شيئاً .
وما رآها الناس في يوم من أيامها استقبلت في قصرها رجلاً متزوجاً أو
خاطباً ، فكانوا يحملون هذا الأمر منها على محمل الأثرة ، ويقولون إنها امرأة
طامعة لا تحب إلا أن يكون عاشقها خالصاً لها ، ولو أنهم عرفوا حقيقة أمرها
وألموا بسريرة نفسها ، لعلموا أنها امرأة حزينة منكوبة ، قد فجعها الدهر في
سعادة الزوجية فعرفت قيمتها فهي لا تحب أن تفجع فيها امرأة غيرها .
لقد تحدث بعض الذين ألموا بشؤون حياتها الخاصة أنها وهبت مرتين أو
ثلاثاً بعض الفتيات الفقيرات مهوراً يستعن بها على الزواج ممن يردن ، فلم
يصدق الناس هذا الخبر وقالوا إن السالب لا يكون واهباً ، وإن ينبوع الخير
لا يمكن أن ينفجر في قلوب النساء الفاجرات ! ولكن الحقيقة أنها فعلت
ذلك ، وربما فعلت أكثر منه .

هذا هو قلب « مرغريت » ، وهذه هي سريرة نفسها ، فهي فتاة فاسدة
ولكنها غير راضية عن فسادها ؛ وساقطة ، ولكنها لا تحب أن ترى الفتيات
ساقطات مثلها ، ولو كان في استطاعة المرأة الساقطة أن تسترجع بتوبتها
وإنابتها مكائنها في قلوب الناس ، وأن تمحو بصلاحها ما سلف من فسادها
لكانت هي أقرب النساء إلى التوبة والنزوع ، ولكن المجتمع الذي أسقطها
وسلبها ذلك الرداء من الشرف الذي كانت ترتديه ، يأبى عليها أن يعيد إليها
رداءه إن طلبته ؛ فلا بد لها من الاستمرار في سقوطها راضية أو كارهة ،
وكذلك كان شأنها .

ولم يمض على « مرغريت » في حياتها هذه أكثر من بضعة أعوام ، حتى

نزل بها مرض حجبتها في بيتها عدة أيام ثم اشتد عليها ، فأشار عليها الأطباء أن
تذهب إلى حمامات « البانير » للاستشفاء بمائها وهوائها ، فسافرت إليها
وحدها لا تصحبها إلا خادمتها ، وكان في ذلك المصطاف (١) في هذا العام
شيخ من الأثرياء اسمه « الدوق موهان » حضر إليها مع ابنته وكانت مريضة
بداء الصدر ؛ ليستشفى لها من دائها فلم يُجدها العلاج وماتت بين يديه ؛
فدفنها هناك وليث بعد موتها عدة أيام يختلف إلى قبرها ويكيها بكاءً شديداً .
فإنه لعائد من المقبرة ذات يوم إذ لمح في طريقه « مرغريت » سائرة
وحدها ، وكان ذلك اليوم الثاني من وصولها إلى « البانير » ؛ فدهش لمنظرها
دهشة عظيمة ، وخيل إليه أن الله قد بعث له ابنته من قبرها ، أو أرسل إليه خيالها
ليعزيه عنها لمكان الشبه بين صورة هذه الفتاة وصورتها ، فتقدم نحوها ذاهلاً
مشدوهاً وأمسك بطرف رداؤها ، وظل يحرق في وجهها تحديقاً طويلاً ،
فعبجت لشأنه وسألته ما باله ، فقال لها :

« هل تأذنين لي يا سيدتي أن أقبل يدك ؟ » فمدت إليه يدها وهي لا تعلم
ماذا يريد ولا ما الذي أصابه ، فلمتها ثم اعتذر إليها عن جرأتها ، بذهوله
ودهشته ، ومشى معها يقص عليها قصته وقصة مصابه في ابنته وما راعه من
الشبه بين صورتها ، وصورتها ، فرثت له ، وحزنت لحزنه ، واستهلت دموعه
رآها الشيخ من خلال أهذاب عينها المبتلة بالدموع ، فسقط على يدها يقبلها
ويشكر لها تلك الدمعة التي جادت بها عليه في ساعة شقائه . ولم يزل سائراً
معها حتى وصلا إلى التزل ، فودعها ومضى بعدما استأذنها أن يختلف إليها من
حين إلى حين ، فأذنته بذلك وصعدت إلى غرفتها .

(١) المصطاف : مكان الاصطيف .

فلما حلت بنفسها أنشأت تفكر في أمر تلك الفتاة المسكينة التي اختطفها الموت من يد أبيها في زهرة صباحها من حيث لم يستطع طيب ولا عائدر عادية القضاء عنها . ثم خطر لها أنها مريضة بمثل المرض الذي ماتت به ، وأنها ربما ماتت موتها فلا تجد بجانبها أبا كهذا الأب يندبها ويكي عليها ، فأثر في نفسها هذا الخاطر تأثيراً شديداً ، وبكت له بكاء طويلاً ولزمت غرفتها في ذلك اليوم لا تفارقها .

وظل « الدوق » يختلف إليها بعد ذلك فيجالسها طويلاً ويجد من الأناجيب ، والاعتباط بعشرتها ، ما تسكن به لوعة نفسه كلما شبهاً^(١) الوجد في صدره ، حتى أصبح لا يستطيع مفارقتها ساعة واحدة ، وكأنما لُد لها أن يرى ذلك الشيخ الناكس المنكوب في وجهها سلوته وعزاه ، فمنحته من عطفها وحبها ما لم تمنحه أحدًا من قبله ، وأنست به أنسا لم تأنسه بإنسان سواه . وما هي إلا أيام قلائل حتى أبلت من مرضها بعض الإبلال^(٢) ، وعاد إلى وجهها الجميل رونقه وبهاؤه ، وإلى ثغرها البديع ابتسامه وافتقاره ، فلذ لها المقام في البانير أياماً طويلاً حتى شعرت بهبوب رياح الشتاء ، فأزمت العودة إلى باريس ، فشق ذلك على الدوق وعلم أنها إن عادت إليها لا يظفر منها في ذلك المزدحم العظيم الحافل بخلائها وأصدقائها بمثل ما كان يظفر به منها في البانير ؛ فعلى بها ليلة السفر ساعة وحادثها حديثاً طويلاً انتهى بالاتفاق معها على أن تهجر حياتها الأولى ، حياة المخالعة والمعاشرة وتعيش في منزل يبيو لها ، ويقوم بنفقاتها فيه على أن تأذن له بالاختلاف إليها من حين إلى حين ، ثم سافرا في اليوم الثاني إلى باريس .

(١) شب النار : أوقدها .
(٢) أبل من مرضه : برئ منه .

ومنذ ذلك اليوم تغيرت صورة حياتها عما كانت عليه من قبل ، فأصبحت تعيش في قصرها الذي هياها لها الدوق عيشاً بين العزلة والاختلاط ، فلا تستقبل الناس فيه إلا قليلاً . ولا تمتزج مع الذين تستقبلهم الامتزاج كله . وربما مرت بها أيام لا يراها الناس خارج قصرها إلا قليلاً ؛ فإذا خرجت ركبت عربتها وحدها دون رفيق أو رفيقة ، ومشت في طريقها تقرأ في كتاب أو صحيفة ؛ فربما مر بها كثير ممن تعرفهم فلا تراهم ؛ فإذا وقع نظرها على واحد منهم ابتسمت له ابتسامة قصيرة موجزة ، قلما يشعر بها أحد سواه ، ثم استمرت أدراجها حتى تصل منتزه « الشانزلزيه » فتنزل من عربتها وتمشي في الغابة على قدميها ساعة ثم تعود إلى قصرها . فإذا جاء الليل ذهبت إلى ملعب التمثيل وحدها ، أو مع الرجل القائم بشأنها ؛ فتقضى فيه أكثر وقتها ناظرة إلى المسرح لا يشغلها كثرة الناظرين إليها أو المتهاقين على مقصورتها ، عن تتبع فصول الرواية والاهتمام بوقوعها حتى تنتهي .

فلم تمض عليها أيام كثيرة ، حتى علم الناس جميعاً أن « مرغريت » قد استحوطت حالها ، وتغيرت صورة حياتها وأنها قد قنعت بهذه الحياة الجديدة ؛ حياة الهدوء والسكينة ، والوحشة والانفراد ورضيتها لنفسها ، فلا سبيل إلى مغالبتها عليها فقصرت عنها أطماعهم وانقطعت منها آمالهم ، وظلوا يتلمسون الأسباب لتلك الحالة الغربية التي طرأت عليها . فذهبوا في شأنها المذاهب كلها إلا المذهب الصحيح منها ، وهي أن تلك الحادثة المخزنة التي حدثت لابنة الدوق شببتها في صورتها ومرضها قد أثرت في نفسها تأثيراً شديداً ، وصورت لها الحياة بصورة غير صورتها الأولى ؛ فأصبحت تعاف الرجال لأنهم سبب سقوطها وتستنكر سقوطها أكثر مما أستنكرته من قبل لأنه سبب مرضها ، ولا تأسف على ما فاتها مما في أيدي الناس ؛ لأنها تـ ...

الدوق في نعمة لا يطمع طامع في أكثر منها . وربما خطر لها أن حياتها مع هذا الشيخ الهرم الذي لا يطمع منها في أكثر من أن يراها ، تشبه حياة العذارى الطاهرات اللواتي ينعمن بنعمة الشرف في ظلال آبائهن ؛ فأعجبها هذا الخيال ولذ لها ؛ وكثيراً ما بكّت ذلك الشرف قبل اليوم وحتت إليه .

انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء ، وسالت الأجواء برداً وقُراً ؛ فثار ما كان كامناً من داء « مرغريت » ، وعاد إليها نفثها وسعالها ، فظلت تكابد من مرضها آلاماً جساماً ، لا تفارقها يوماً حتى تعاودها أياماً ؛ فإن ألمت بها لزمت سريرها لا تفارقه ؛ وإن رُوحت ^(١) عنها برزت إلى الخلاء في بكور الأيام وأصائلها تطلب الهواء الطلق والجو النقي ؛ وربما ذهبت في بعض لياليها إلى ملعب التمثيل لتفرج ^(٢) ما هي فيه ، فتخلو بنفسها في مقصورتها ساعة أو ساعتين ، ثم تعود إلى منزلها .

وكانت لا تزال ترى في المقصورة المجاورة لمقصورتها كلما ذهبت إلى الملعب فتى في زى أبناء الأشراف وشمائلمهم ، لا يزال يخالسها النظر من حين إلى حين ؛ فينظر إليها إن غضت عنه ويغضى عنها إن نظرت إليه ؛ ولا يلتقى نظرها بنظره حتى يتلهب وجهه حمرة ويرفض جبينه عرفاً ؛ كأنما جنى جناية لا مُقيل له منها ؛ فلم تحفل به كثيراً لأنها لم تر في أمره شيئاً جديداً ؛ إلا أنها كانت تعجب لسكونه وجموده ؛ وطول إغضائه وإطراقه ، ولتلك العبرة من الحزن المنتشرة على وجهه . وكان أكثر ما يدهشها منه أو يعجبها ، أنه الفتى الوحيد الذي كان ييكي في ذلك المجتمع لمنظر المشاهد الحزينة التي تمثل على مسرح التمثيل ؛ لأنها تعلم أن الفتیان الفرحين المغتبطين بشبابهم وصحتهم

(١) رُوْح عنه : تنفس عنه ما يضيقه . (٢) تفرج : طلب ما يفرج عنه .

لا يحفلون بمنظر الشقاء الحقيقية فأحرى أن لا يحفلوا بتمثيلها .

فإنها لخالية بنفسها في مقصورتها ذات ليلة ، وكان الجو بارداً مقلعاً إذ فاجأها نوبة سعال اشتدت عليها كثيراً حتى كادت تسقط عن كرسبها ضعفاً ووهناً فشعرت بيد تمسك يدها ، فاعتمدت عليها دون أن تستطيع الالتفات إلى صاحبها حتى بلغت عربتها فركبها ، فشعرت بالراحة قليلاً ، فالتفتت لتشكر لصاحب تلك اليد يده ، فلم تر أمامها أحداً ورأت على بعد خطوات منها إنساناً منصرفاً فلم تتمكن من رؤيته إلا أنها تخيلت صورته تخيلاً ، فعجبت لأمره ومضت في طريقها . فما وصلت إلى منزلها حتى شعرت برعدة الحمى تمشى في أعضائها ، فلزمت سريرها بضعة أيام لا تفارقه حتى أبليت قليلاً ، فقدمت إليها خادمتها بطاقات الزيارة التي تركها الفتیان الذين زاروها في أثناء مرضها تجملاً وتلوماً ، فلم تقرأ واحدة منها .

ثم حدثتها الخادمة أن فتى كان يأتي للسؤال عنها في كل يوم مرة أو مرتين ، ولا يذكر اسمه ، ولا يترك بطاقته ، وأنه كان ينقبض انقباضاً شديداً كلما أخبرته أنها لا تزال طريحة فراشها تشكو وتئنم ، فاستوصفتها إياه فوصفته لها فلم تعرفه ، وعجبت لأمره كل العجب ، وتمنت لو رأته فشكرت له هذا الإخلاص النادر ، الذي لا عهد لها به في أحد من الناس .

وأمرت خادمتها أن تخبرها خبره إن جاء للسؤال عنها مرة أخرى ، فلم يلبث أن جاء ، وكانت مرغريت جالسة في شرفة المنزل المطل على الطريق ، فرأته فعرفت أنه ذلك الفتى الحزين الذي كانت تراه في المقصورة المجاورة لمقصورتها في ملعب التمثيل ، وأنه صاحب تلك اليد التي امتدت لمعونتها ليلة النازلة التي نزلت بها هناك ، فأشارت إلى خادمتها بالنزول إليه واستدعائه إليها ففعلت ، فاضطرب الفتى لهذه الدعوة اضطراباً شديداً حتى كاد يرفضها ، ثم

الأولى ، ثم سألت عنك فعرفت من أمرك كل شيء ، وعلمت أنك تعيشين منذ شهر عيشة لا مطمع فيها لطامع ولا أمل لآمل ، فانقطع أمل منك ، إلا أن حتى ليالك لم يقطع . ثم رأيتك بعد ذلك في ملعب التجميل ورأيت هذا القناع الأصفر الذي نسلجه بد المرض على وجهك الجميل ، فاستحال حتى ليالك رحمة وشفقة ، وأصبحت أبكى لمرضك أكثر مما أبكى ليحك . وأصبح كل ما أتمنى على الله في حياتي أن أراك بارئة ناعمة ، موفوراً لك حظك من سعادة العيش وهنائه ، ثم لا أطمع بعد ذلك في شيء مما يطمع فيه المحبون المغمزون . فانا أقف الساعة بين يديك لا لأطازحك الحب والغرام ؛ بل لأسأل أن تأذني لي بالوقوف على بابك كلما جتته أسأل خادمتك عنك ، ثم أمضى لسبيلي من حيث لا تترين وجهي ، ولا تشعرين بمكاني .

فسرت في أعضائها رعدة غير الرعدة التي تعرفها من الحمى ، وخيل لي أنها تسمع نغمة في الحب غير النغمة التي كانت تسمعها قبل اليوم من أفواه الرجال ، فنظرت إليه نظرة لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى . ثم قالت له : « إنى آذن لك بذلك يا سيدى ، وأشكرك لك شكراً جزيلاً ، بل آذنتك أن تزورنى كلما شئت ، على أن تقد إني صديقاً مساعداً ، لا محبباً مغرماً ، فإني إلى الأصدقاء المخلصين أخرج منى إلى المحبين المغمزين .

ومدت إليه يدها ، فعلم أنها قد آذنته بالانصراف ، فقبلها وانصرف مسروراً مقتبلاً ، فأتبعته نظرها حتى غاب عنها ، فسقطت على وسادة بجانبها ، وقالت : « رحمتك اللهم ؛ فإني أخشى أن أحبه ! »

بل شعرت في حبه بسعادة لم تشعر بمثلهما من قبل ؛ فأصبحت تستقبله كل يوم في منزلها ، وتأنس به ويحديه أنساً كثيراً ، وتقضى إليه بذات نفسها إقضاء

شعر بمكان مرغريت من الشرقة فقوم ومشى وراء الخادمة ، حتى صعدت به إلى غرفة سيدتها فركبه وانصرفت .

فدخل عليها فحياها ووجهه يرفض عرفاً ولسانه لا يكاد يبين ، فمدت إليه يدها فتناولها وقبلها قبلة طويلة ، عرفت مرغريت سر ما أودعها من عواطف قلبه ، وهى العالمة بأسرار القبلات ، ثم آذنته بالجلوس ، فجلس ، فأنشأت تسأله عن نفسه وعن قومه ، وعن سبب اهتمامه بشأنها وتبسم له فيما بين ذلك ابتسامات تلاطفه بها ، وتمسح عن فؤاده ما ألم به من الروع .

فحدثها أنه غريب عن باريس ، وأنه وفد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته « نيس » ليقتضى فيها ثلاثة أشهر آذن له أبوه بها طلباً لتغيير الهواء وترويح النفس ، ثم يعود في نهايتها إلى وطنه . فسأته : « إن الأقام ابتسامتها الخفيفة »

« هل وجدت المقام جيداً هنا ؟ »

« فصمت هنيهة ، ثم نظر إليها نظرة منكسرة ، وقال : « لا يا سيدتى . »

« قالت : « لماذا ؟ »

« فحارت بين شفتيه كلمة لم يستطع أن يطلقها ، فبادل صمته وإطراقه ، فأعادت عليه سؤالها .

« فقال لها : « هل تأذنين لي يا سيدتى أن أقول لك كل ما في نفسى ؟ »

« فشعرت بما في نفسه قبل أن يقوله ، وقالت له : « قل ما تشاء إلا أن تطارحني حبك وغرامك ؛ فإني امرأة مريضة لا أستطيع أن أحتمل الحياة وحدها خالصة لا مؤونة فيها ، فأحري أن لا أحتملها مثقلة بالحب والغرام .

« فاصفر وجهه اصفراراً شديداً ، ومد يده إلى دموعه تترقرق في عينيه ، فمسحها ، ثم قال لها : « ذلك ما يجزئني يا سيدتى ويكفيني وينقص على عيشي ، منذ هبطت باريس حتى اليوم ، فإني رأيتك فأحببتك للنظرة

الصديق إلى صديقه ، وتقص عليه قصة ماضيها وحاضرها لا تكذبه شيئاً ولا تكتم عنه أمراً ، ثم تراسى بها الأمر ، حتى أصبحت تشعر بالوحشة إن تخلف عن ميعاد زيارته بضع دقائق . ثم حدث أن انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام لأمر عرض له ، لم يتمكن من إخبارها به ، فحزنت لانقطاعه حزناً عظيماً وذهبت بها الوسواس والظنون كل مذهب . ثم ذكرت أن ذلك الحزن وهذا الوسواس ليس من شأنها قبل اليوم ، فقلقت لذلك قلقاً شديداً ، وخفق قلبها خفقة الرعب والخوف ، وعلمت أنها قد وقفت على حافة الهوة ، ولم يبق إلا أن تتردى فيها ، فسهرت ليلة طويلة عاجلت فيها من نوازع النفس وخوالجها ما عاجلت حتى أصبح الصباح ، وقد أضمرت في نفسها أمراً .

جاء « أرمان » في صباح اليوم الرابع ، فوجدها طريحة فراشها ، وفي عينا حمرة البكاء والسهرة ؛ فارتاع لمنظرها ، وقال لها :

« لعلك سهرت بالأمس كثيراً يا سيدتي أو بكيت ؛ فأني أرى في عينيك أثر واحد منهما . »

قالت : « هما معاً يا أرمان . »

قال : « وهل حدث شيء جديد ؟ »

قالت : « اجلس بجانبى قليلاً أيها الصديق أحدثك حديثاً قصيراً ، وربما كان آخر حديث بيني وبينك ، ثم لا أراك بعد ذلك ولا تتراني . »

فذعر ذعراً شديداً ، وداخله من الرعب والهول ما ملك عليه عقله ولسانه ، فلم يستطع أن يقول شيئاً وسقط بجانبها واهياً متضعضاً ، وظل ينظر إلى وجهها نظراً المتهم إلى وجه قاضيه ساعة نطقه بالحكم .

فأقبلت عليه تحدّثه وتقول :

عرفتك يا أرمان ، فعرفت فيك الرجل الكريم الذي أحبنى لنفسى أكثر مما

أحبنى لنفسه ، والصديق الوفي الذي امتزجت في قلبه عاطفة الحب بعاطفة الرحمة والحنان ، فأوى إليّ مريضة حينما جفاني الناس لمرضى ، وعاش معي بلا أمل حينما انقطع الناس عني لانقطاع أملهم مني ؛ فأضمرت لك في قلبي من الحب والاحترام ما لم أضمره لأحد سواك ، وسعدت بك سعادة لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي .

« ولكن الله الذي كتب لي الشقاء في لوح مقاديره من ضجعة المهدي إلى رقدة اللحد ، لم يشأ أن يمّتنى طويلاً بهذه السعادة ، وأنى إلا أن يسلبنيها وشيكاً ؛ فقد أصبحت أشعر منذ أيام أن تلك العاطفة الشريفة المقدسة التي كنت أستمد منها سعادتي وهنائي قد أخذت تستحيل في أعماق قلبي إلى عاطفة أخرى غيرها لا أريدها لنفسى ، ولا أرى إلا أنها ستكون سبب شقائي وبلائي ؛ فخادعت نفسي عنها حيناً ، أكذبها مرة وأصدقها أخرى ، حتى كان ما كان من انقطاعك عني تلك الأيام الثلاثة ، شعرت لغيابك بحزن أقلقني وأمضني ، وملك عليّ جميع عواطفى ومشاعري ، ولو شئت أن أقول ، لقلت إنه أبكاني كثيراً ، وأسهرنى طويلاً . »

« فعلمت وأأسفاه أنني قد أصبحت عاشقة ، وأن هذا الذي يختلج في قلبي ، ويقيمى ويقعدنى ، إنما هو الحب والغرام ، فقضيت ليلة الأمس كلها أفكر في طريق الخلاص من هذه النكبة العظمى التي نزلت بي فلم أجد أحداً يخلصنى منها سواك ، فأنا أسألك يا أرمان ، باسم الصداقة والود الذي تعاقدنا عليه بالأمس ، بل باسم الدموع التي طالما كنت تسكبها رحمة بي وإشفاقاً عليّ ، أن تنقطع عن زيارتي منذ اليوم ، وأن تسافر إلى أهلك الليلة إن استطعت ، ثم لا تعد إليّ بعد ذلك ، فأحمل نفسي على الصبر عنك حتى يمنّ الله عليّ براحة اليأس منك ! »

ثم نظرت إليه لترى ما يقول ، فإذا هو جامد مصفر ، كأن وجهه وجه تمثال منحوت ، وإذا عيناه شاخصتان إليها شحوص العين القائمة (١) التي تنظر إلى الشيء ولا تراه وبعد لأي ما (٢) استطاع أن يحرك شفثيه ، ويقول لها بصوت خافت كصوت الضمير :

« وما يخيفك من الحب يا مرغريت ؟ »

قالت : « يخيفني منه العقاب الأليم الذي أتوقع أن يعاقبني به الله على ما اقترفت من الذنوب والآثام في فاتحة حياتي ، فقد كتب الله لنا — معشر النساء الساقطات — في لوح مقاديره أن لا نزال نعبث بقلوب الرجال وعقولهم ، ونبتليهم بصنوف العذاب وأنواع الآلام ، حتى يغضب الله لهم ويغار عليهم ؛ فيبتلينا بحب نحمل فيه من العذاب جميع ما حملناه الناس من قبل ، ونشقى فيه شقاء لا ينتهي إلا بانتهاء حياتنا ، فموت بين يدي أنفسنا مهملات مغفلات ، لا ينعانا ناع ولا ييكي علينا باك ، فهذا الذي أخافه وأخشاه ، وأحب أن يسبق إليّ أجل قبل أن أراه .

« أنا لا أهتمك بالخيانة والغدر يا أرمان ؛ فأنت أجل من ذلك عندي ، ولكنني أعلم أنك باق في هذا البلد إلى أجل ، فإذا انقضى الأجل سافرت إلى أهلك سفراً لا تملك بعده العودة إليّ . فإن أبيت إلا البقاء بجانبى حال أهلك بينك وبين ذلك ؛ لأنهم قوم شرفاء يضمنون بك وبشرفك أن تلوثهما امرأة مومس بعارها وشنارها ، فلا تجد لك بدءاً من الخضوع لهم والنزول على حكمهم ، وهنالك أقف موقف الحيرة واللوعة أطلب السبيل إليك فلا أجذك ، والسلو عنك فلا أستطيعه . وربما حاولت بعد ذلك العودة إلى كنف

(١) العين القائمة : التي ذهب نورها وبقيت حدقتها صحيحة . (٢) اللأى : الجهد والمشقة ، و (ما) هنا زائدة .

ذلك الشيخ الكريم الذي أحسن إليّ إحساناً كبيراً ؛ فطر دني من بين يديه عقاباً لي على خيانة عهده وكفر نعمته ، فلا أجد لي بدءاً من الرجوع إلى حياتي الأولى — حياة الشرور والآثام ، والهموم والآلام — التي أبغضها بغض الأرض للدم ، وهنالك العذاب الدائم والشقاء الطويل .

« إنني أعلم يا أرمان أنك تحبني حباً جماً ، وأنت ستكابد في ابتعادك عنى عذاباً كثيراً ، ولكنني أعلم أن لك قلباً شريفاً يحتمل العذاب في سبيل الرحمة ، فاحتمل هذا العذاب من أجلى ، فإنك أقدر منى على احتمال الآلام والأوجاع ، وسأدعو الله تعالى ليلى ونهارى أن يمنحنى الصبر عنك ، ويرزقنى راحة النفس وسكونها من بعدك ، وأن يمنحك من ذلك مثل ما يمنحنى ؛ فلعله يرحمنا جميعاً ! »

فلم يكن له جواب على كلمتها هذه سوى أن نهض من مكانه متضعفاً متهاكماً ومشى إلى باب القاعة يسوق نفسه سوقاً حتى بلغه ، فوقف على عتبته ، والتفت إلى مرغريت ، وألقى عليها تلك النظرة التي يليقها المحتضّر على أهله في آخر لحظات حياته ، وقال لها : « الوداع يا مرغريت ! » ومضى .

فما غاب شخصه عن عينها حتى نهضت من فراشها هائمة مختبلة ، واندفعت إلى الباب تريد للحاق به ! ثم تراجعت ثم حاولت ذلك مرة أخرى ؛ فأدركها رشدها وأناتها ، فعادت إلى فراشها تبكي وتتحب ، وتعول إعوالاتاً شديداً ، وتدور في أنحاء الغرفة دوران الثاكلة المفجوعة ، وهي تصيح : « أرجعوه إليّ . لا أستطيع فراقه ، سأموت من بعده . »

ولأنها كذلك إذ سمعت صرخة عظمى آتية من ناحية الحديقة ، فخرجت تعدو إلى حيث سمعت الصوت ، حتى بلغت باب المنزل فرأت « أرمان »

ساقطاً تحت عتبه مغشياً عليه ، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : ليكن ما أراد الله ، ثم أَلقت نفسها عليه ولثمت ثغره لثمة هي أوَّل لثمة ذاقت فيها لذة العيش في حياتها ، ف شعر بها « أرمان » فاستفاق ، وضمها إلى صدره ضمة لو مات على أثرها ما بكى على شيء من نعيم الدنيا وهنائها !

انقضى الشتاء فانقضى بانقضائه شقاء « مرغريت » وعناؤها ، فقد أبلت من مرضها ، وأصبحت سعيدة بحبها ، فلم يبق بين يديها إلا أن تبلغ من تلك السعادة نهايتها ، فاقترح على أرمان أن يترك باريس وضوضاءها ، ومزدحم الحياة فيها إلى مصيف يختارانه لنفسهما في بعض الأماكن الخالية ؛ فقبل مقترحها وسافرا معاً يفتشان عن المكان الذي يريدان حتى بلغا قرية « بو جيفال » . وهي ضاحية من ضواحي باريس على بعد ساعتين منها ، فوجدوا في بعض أرباضها منزلاً صغيراً منفرداً واقعاً على رأس هضبة عالية في سفح جبل مخضر ، تجرى من تحته بحيرة صافية بديعة كأنما بناه بانيه لهما ، فاكترياه ، ونقلت « مرغريت » إليه من منزلها في باريس بعض ما يحتاجان إليه من أثاث ومتاع .

ثم عاشا فيه بعد ذلك عيشاً ناعماً هنيئاً ، لا تضطرب في سمائه غَيمة ، ولا تمر بصفحته غيرة ، ولا يكدر عليهما مكدر من خواطر الشقاء ووساوسه ، فكانا يقضيان نهارهما صاعدين إلى قمة الجبل أو منحدرين إلى سفحه ، أو راكبين زورقاً صغيراً يسبح بهما على صفحة البحيرة جيئة وذهوباً ، أو جالسين تحت شجرة فرعاء تظللهم من لفحات الهجير وتضمهما إليها كما تضم ثمارها ، أو مضطجعين على بساط من العشب الممتد في تلك البطحاء الفسيحة . يتناجيان ويلهوان بمنظر الجمال المائل في الشاطئ ، والأمواه والأخاديد ، والوديان والغابات والحرجات ،

والكهوف والأغوار ، والغيوم والسحب والأضواء في تشكيلها وتلونها ، والظلال في تحولها وانتقالها ، وفي رؤوس الجبال اللاصقة بجلدة السماء كأنها بعض سحبها ، وفي قطع الصخور المبعثرة على جوانب الغدران كأنها بعض أمواجها ، وفي تلك المعركة التي تدور في كل يوم مرتين بين جيشي الأنوار والظلمات فينتصر في صدر النهار أولهما ، ثم يُدال في آخره لثانيهما . حتى إذا جاء الليل ، عادا إلى منزلهما فنعمتا فيه بألوان النعيم وضروبه ، ورشفا من كل ثغر من نُغور السعادة رشفة تسرى حلاوتها في قلبهما حتى تصيب صميمته . مر بهما على ذلك عام كامل هو كل ما استطاعا أن يختلساه من يد الدهر في غفلته ، ثم انتبه لهما بعد ذلك — وويل للسعداء من انتباهه بعد إغفائه — فقد نضب أو أوشك أن ينضب ما كان في يد « أرمان » من المال ، وكان في يده الكثير منه ، فكتب إلى أبيه يطلب إليه أن يعث إليه بما يستعين به على البقاء في باريس مدة أخرى ، زاعماً أنه لا يزال مريضاً متألماً لا يستطيع السفر ، وكذلك كان يفعل من حين إلى حين . فلم يأته الرد ، فأقلقه ذلك قلقاً شديداً ، وظل يختلف إلى المدينة في كل يوم ، يسأل في فندق « تورين » الذي كان ينزل به قبل اتصاله بمرغريت عن الكتاب الذي ينتظره فلا يجده ، فيعود حزينا منقبضاً ، حتى إذا وصل إلى بو جيفال ورأى مرغريت بين يديه ، تطلت وتبسّم كأنه لا يضر في نفسه همًا قاتلاً .

ولكن عين مرغريت أقدر من أن يعجزها النفاذ إلى أعماق قلبه ، فاكتهبت سره فكاشفته به ، وقالت : « لا يجوز لك شأن المال يا أرمان ؛ فإن عندي منه ما يكفينا العيش معاً سنين طوالاً . » ولم تكن صادقة فيما تقول لأن الدوق قاطعها ومنع عنها رفده مذ عرف

قصتها مع « أرمان » ، وعلم أنها خاتنه وخانت بعهدده ، بل كانت مدينة بجمال كثير لبعض تجار الجواهر والثياب ، بل أصبح دائئوها يتقاضونها ديونهم بعدما علموا أن الدوق قاطعها ونفض يده منها .

ولكنها خاطرت بكلمتها مخاطرة لم تفكر في عاقبتها ، فأكبر « أرمان » ذلك وأعظمه ، وأنف منه أنفة شديدة ، وأبى أن يعيش معها بجمال غير ماله ، وعزم أن يسافر إلى « نيس » ليأق منها بالمال الذي يريده ، فأزعجها عزمه هذا إزعاجاً شديداً وخافت عاقبته ، فجثت بين يديه تستعطفه وتسترحمه ، وتبذل في ضراعتها ورجائها في سبيل بقاءه أكثر مما بذلت قبل اليوم في سبيل رحيله ، حتى أذعن واستقاد ، ورضى بالتي لم يكن يرضى بمثلها لولا لطفة الحب وضراعة الدموع ؛ وقد أضمر في نفسه أن يتنازل لها عن نصيبه في الميراث الذي ورثه من أمه ؛ مكافأة لها ووفاء بحقها . فلم يكن لمرغريت بعد ذلك بد من أن تمد يدها إلى جواهرها وذخائرها ، فأنشأت تبيع القطعة بعد القطعة ، لتسد بعض دينها ، وتقوم بنفقة بيتها ، من حيث لا يعلم أرمان ! واستمر على ذلك بضعة أشهر . حتى دخل عليهما في يوم من الأيام في ساعات أنسهما وصفائهما خادم فندق « تورين » الذي كان ينزل به أرمان في باريس وقال له إن والده قد وصل الساعة إلى الفندق ، وإنه ينتظره هناك .

قال دوفال لولده : « لقد كذبت علي كثيراً يا أرمان ؛ وما كنت قبل اليوم كذاباً ، ولا خادعاً ، ورضيت لنفسك بحياة كنت أضنّ الناس بنفسك على مثلها من قبل ؛ ومزقت بيدك ذلك القناع الجميل من الحياء الذي لا يزال مسبلاً على وجهك ؛ وأصبحت تبذل في العيش مع امرأة عاهرة ؛ كل ما لها من الشأن عند نفسها ؛ وعند الناس جميعاً أنها نفاية من نفايات الرجال وفضلة من فضلات الفساق ؛ وفئات المائدة العامة التي يجلس عليها الناس جميعاً

صباحهم ومساءهم ، فحسبك هذا ، وقم الساعة لتعد نفسك للسفر معي إلى « نيس » ؛ فلست بتاركك بعد اليوم في هذا البلد ساعة واحدة . »
فرجع « أرمان » رأسه إلى أبيه ؛ وقال له بصوت هادئ مطمئن :
« لا أستطيع يا أبتاه ! »

فنظر إليه أبوه نظرة شزراء ، وقال له : « وتلك سيئة أخرى ؛ فقد أصبحت لا تعبأ بي ، ولا تبالي بمخالفة أمرى من أجل امرأة ساقطة ، لا شأن لها معك إلا أن تعبت بعقلك ؛ وتسلبك مالك وشرقتك ؛ وتفسد عليك حاضرَكَ ومستقبلَكَ . »

قال : « لا يا أبتاه ؛ إنها ليست بعابثة ولا خادعة ، ولكنها تحبني حباً جماً لم يحبه أحد من قبلها أحداً ، وأحسب أنى إن فارقتها قتلتها ، وجنيت عليها جناية لا يفارقني الندم عليها حتى الموت . »

قال : « ذلك ما يخدع به أمثالها أمثالك ، فليس للنساء العاهرات قلوب يحببن بها ، بل هن ألسن يختلن بها الرجال ويسلبنها حججاً بين بعضهم وبعض ! حتى يظن كل واحد منهم أنه الأثير عندها ، وصاحب الخطوة لديها ، من دون أصحابه جميعاً . »

قال : « ربما كان ذلك شأنها قبل اليوم ، أما اليوم فهي لا تحب أحداً غيرى ، بل لا تعرف أحداً سواى ، فهي تعيش عيشة تشبه عيشة النساء الشريفات ، بل أشرف من عيشة الكثيرات منهن ؛ لأن الخلية التي تخلص لخليلها ، أشرف من الزوجة التي تخون زوجها ، وأخشى إن فارقتها أن تنور في نفسها ثورة اليأس فتردها إلى تلك الحياة الأولى ؛ حياة الشر والفساد ، والشقاء والعذاب ، بعدما استنقذت نفسها ! »

قال : « وهل ترى أن وظيفة الرجل الشريف في هذه الحياة إصلاح النساء

لقاتك حينئذ الظامئ إلى الورود ١ واعلم أن جميع ما تمتنر به عن نفسك في هذا الشأن ، لا ينبغي عنك ولا عني شيئاً يوم يقول الناس كلمتهم التي لا بد أن يقولوها غداً . وربما قال كثير منهم قبل اليوم إن أرماني دوفاك سلافة آل تاليراند يعيش مع امرأة مومس في بيت واحد ؛ فقد إلى نفسك يا بني واستلهم الله الرشيد بلهمك ، ولا تجعل لحوالك سيلاً على عقلك . ودع هذه الحياة الساقطة التي يجيهاها من ليست له همة مثل همتك ، ولا تجد ولا بيت مثل مجدك وبيتك ، وإن تاركك الآن وحدك وذهب عنك لبعض شأنك لتخلو بنفسك ساعة تسترد فيها ما عذب عنك من صوابك ، ثم أعود إليك بعد قليل لأسمع منك الكلمة التي أرجو أن تكون شفاعة نفسي ، ورواة غلتي .
 ثم تركه ونزل فمشى إلى قهوة قريبة من الفندق فكذب فيها لبعض الناس كتاباً خاصاً . ثم طاف ببعض أصدقائه الذين يعرفهم في باريس ، فزارهم زيارة طوية ؛ فلم يمد إلى الفندق حتى أطل الليل ، فرأى أرماني لا يزال في مكانه . فسأله ماذا رأى ، فلم يجبه إلا بدموعه تنحدر على خديه تغر القطر على أوراق الرهر ، وجنا بين يديه يستطفه ويسترحمه ويكشف له من خبيثة نفسه ما كان يكتمه من قبل . يقول :

« والله يا أبت لو علمت أني أستطيع الحياة بدونها ، لفارقها براءتك وإيثارا لطاعتك ، ولكني أعلم أني إن فعلت فقد وضمت أمرى في موضع التورز (١) ، وخاطرت بعقل أو بحياتي مخاطرة لا أعلم ماذا يكون حظي فيها . ولا أحسبه إلا أسوأ المظنين ، وأخس النجسين ، ولو أن أحداً من قبلي استطاع أن يدفع هواء عن قلبه أو يحسو ما قدر له في صحيفة قضائه من شقاء الطب وبلائه (١) التورز : العرض للهلكة .

الفاستاد ٥٢ قال : « ذلك خير له من أن تكون وظيفته إفساد من ؛ فإن الأشراف في هذا العصر يفخرون بإفساد النساء الصالحات ، واستدراجهن إلى مواطن الفسق والفجور ، واصلح المرأة الفاسدة ، أدق إلى الشريف من إفساد المرأة الصالحة .
 قال : « لقد أصبحت كثير الرحمة يا أرماني .
 قال : « لم لأرحم فتاة مريضة مسكينة ليس طاق الناس من يعوطها من ذى قرابة أو ذى رحم ، وقد نزل دأؤها من صدرها مبرة لا يبرحها ولا يتحمل عنها ، إلا أن يهدأ عنها حيناً ويستيقظ أحياناً ، فهي تكابد الألم مرة ، والحروف من الألم أخرى ؟ ولا عزاء لها في حالتها إلا هذه السمادة التي تنومها في الحلب ، وترى أنها ناعمة بها ، فإن فقدتها فقدت كل شيء في الحياة ، وعظم حزنها وبؤسها ، وتقلت وطأة الداء عليها حتى كادت تأتي على البقية الباقية من حياتها .
 « فدعني معها يا أبنائي عالماً آخر أو عامين أمون عليها فيما شفاهها ، فربما كان ذلك آخر ما قدر لها أن تقضيه من أيامها في هذا العالم ، ثم أعود بعد ذلك إليك هادئ القلب ، ساكن الضمير ، راضياً عن نفسي وعن عملي ، أبكيها بدموع الحزن ، لا بدموع الندم ، ويهون وجدى عليها كلما ذكرت أني لم أحبها ، ولم أغدر بعدها .
 فأطرق دوفاك هنيهة كأنما يعالج في نفسه همماً ممتلجاً ، ثم رفع رأسه ، ونظر إلى ولده نظرة تشبه نظرة العطف والرحمة ، وقال له : « لا أستطيع أن أسافر بدونك يا بني فحسبي ما كابدت من الألم لفراقك قبل اليوم ، وقد تركت أختك ورأى تنديك وتبكي عليك صباحها ومساءها ؛ ونحن إلى

لسلكت سبيله التي سلكها ، ولكنه بلاء بليت به لحين أريد لي ، فلا رأى لي في رده ، ولا حيلة لي في اتقائه ، وقد نزلت هذه الفتاة من نفسى منزلة هي منزلة الحياة من الجسم ، والغيث من التربة القاحلة ، فإن كنت لا بد آخذى فخذ معك جسمًا هامدًا لا حراك به ، ونبته ذاوية لا حياة فيها !

فوضع أبوه يده على عاتقه ، وقال له : « قم الآن يا بنى واذهب لشأنك ، وعد إليّ صباح الغد لأتم حديثي معك ، وأرجو أن تكون في غدك خيرًا منك في أمسك . »

فخرج محزونًا مكتئبًا يمشى مشيةً الذاهل المشدوه ، لا يرى ما أمامه ولا يشعر بما حوله حتى رأى عربة ، فركبها إلى بوجيفال حتى بلغها بعد هُدأة من الليل ، فلم ير مرغريت في شرفة البيت تنتظره كعادتها ، فدخل عليها غرفتها فرآها مكبة على منضدة بين يديها كأنما هي نائمة أو ذاهلة ، فشعرت به عند دخوله ، فنهضت مذعورة متلهفة . فخيل إليه عند نبوضها أنه لمح في يدها رسالة تضم عليها أصابعها ، فظنها بعض تلك الرسائل التي كان يرسلها إليها الماركيز « جان فيليب » من حين إلى حين ، وهو فتى من أبناء الأشراف الأثرياء كان يجلبها في عهدهما الأول حبًا شديدًا ، وينفق عليها أموالاً طائلة ، فلما انقطعت عنه لم ينقطع منها أمله ، فظل يرسل إليها رسائل كثيرة يعرض فيها حبه وماله ، ويمتئها الأمانى الحسان في عودتها إليه ، واتصال حياتها بحياته ، فكانت تمزقها عند اطلاعها عليها أو على عنوانها .

فلم يحفل « أرمان » بذلك ومشى إليها فقبلها ، فقالت له : « ماذا يا أرمان ؟ »

قال : « أردت أنى على السفر معك فأبيت ، وبكيت بين يديه كثيرًا فلم أنل منه منالاً ، وقد أمرنى بالعودة إليه غدًا ولا أريد أن أفعل ؛ لأنى لا أحسب حظى

منه في الغد خيرًا منه اليوم . وقد أصبحت نفسى تحدثنى بعصبانته ، والبقاء هنا على الرغم منه ؛ لأنى أعلم أنى قد تجاوزت السن التي يحتاج فيها الأبناء إلى إرشاد الآباء ، ولأنى لا أعرف أحدًا بين الناس يستطيع أن يرسم لي خطة سعادتي كما أرسمها لنفسي . »

ثم أنشأ يقص عليها قصته مع أبيه حتى أتمها ، ونظر إليها فإذا هي مطرقة صامته ، وإذا وجهها أصفر مربد كأنما قد نفّض الموت عليه غباره ! فقال : « ما بالك يا مرغريت ؟ »

قالت : « أشعر بألم شديدة في رأسى ، وأريد الذهاب إلى مخدعي . » فأخذ بيدها إليه ، وجرّعها بضع قطرات من الدواء فاستفاقت قليلاً ، ثم نامت في مخدعها نومًا مشرّدًا مذعورًا ، تنخلله آفات طويلة وأحلام مزعجة ، حتى أصبح الصباح ، فقالت له : « أرى لك يا أرمان أن تعود إلى أبيك كما أمرك ، وأن تعاود استرحامه واستعطافه لعلك بالغ منه اليوم ما عجزت عنه بالأمس . إنى لا أكون راضية عن نفسى ، ولا هانئة بحياتي ، إن لم يكن أبوك راضيًا عنك . »

ولم تنزل به حتى أذعن لها وقام إلى ثيابه فارتداها . ثم مشى إليها وضمها إلى صدره ضمة شديدة ، كأنما يضمن بها أن ينتزعها من ذراعيه منتزع ، ثم قبلها ، وقال لها : « إلى المساء يا مرغريت . » فلم ترد عليه تحيته حتى أبعدها عنها ، فقالت بينها وبين نفسها : « أرجو أن يكون كذلك . » وتهافت على كرسي بين يديها باكية متتعبة .

ولم يزل أرمان سائرًا في سبيله حتى وصل إلى باريس ، فذهب إلى فندق « تورين » فلم يجد أباه هناك ، ووجد رسالة تركها له قبل ذهابه يأمره فيها أن ينتظره حتى يعود ، فلبث ينتظره وقتًا طويلًا حتى عاد بعد منتصف النهار ،

وقد رقت قليلاً تلك الغمامة السوداء التي كانت تلبس وجهه بالأمس ،
فتقدم نحوه أرمان ، فحيّاه ، فقال له :

« لقد فكرت ليلة أمس في أمرك كثيراً يا بنى فرأيت أنى قد قسوت عليك
وغلوت في أمرك غلواً كبيراً ، ونظرت إلى مسألتك بعين أقصر من التي كان
يجب عليّ أن أنظر إليها ، فإن للشباب شأنًا غير شأن الكهولة والشيخوخة ،
وحالاً خاصة به ، لا يخرج عن حكمها شريف ولا وضع ، ولا يختلف فيها
سوقة عن ملك ، فلك أن تبقى يا بنى كما تشاء ، وأن تعاشر الفتاة التي تحبها كما
تريد ، على أن تعدنى بالعودة إليّ في اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بينك وبينها
انقطاع حياة أو موت ، فإني إن أمنت عليك شرها فلا آمن عليك شر غيرها
من النساء . »

فاستطير أرمان فرحاً وسروراً ، وأهوى على يد أبيه يقبلها ويلبها
بدموعه ، ويقول : « أعدك بذلك يا أبتاه وعدًا لا أخالفه ، ولا أخيس به ،
ولك حكمك ما تشاء إن رأيتني بعد اليوم كاذبًا أو حائثًا . »

ثم نهض يريد الذهاب ، فقال له :

« أين تريد ؟ »

قال : « أريد الذهاب إلى مرغريت لأبشرها بهذا النبأ وأمسح عن فؤادها
ما ألمّ به من الروع منذ الأمس . » فانتفض أبوه انتفاضة خفيفة لم يشعر بها
أرمان . ثم أدار وجهه ليغالب دمعة كانت تترقق في عينيه .

ثم التفت إليه وقال : « ابق معي يا بنى فربما سافرت غدًا ، ولا أعلم بعد
ذلك متى أراك . »

فبقى معه اليوم كله حتى جاء الليل ، فاستأذنه في الذهاب إلى بوجيفال
فأذن له فحيّاه وخرج ؛ فأتبعه نظره حتى غاب عن عينيه ؛ فانحدرت من

جفنه تلك الدمعة التي كان يحبسها من قبل ، وقال : « وارضته لك أيها الولد
المسكين ! »

حمل أرمان بين جنبيه آماله وآمال مرغريت وسعادتهما التي يرجوانها في
مستقبل حياتهما ، وطار بها إليها ليقاسمها إياها حتى دنا من بوجيفال ،
فأدهشه أن رأى البيت مظلمًا ساكنًا لا يضطرب فيه شعاع ، ولا يترأى فيه
ظل ؛ فمشى إلى الباب فرآه مرتجًا ، فوضع أذنه على خصاصه ، فلم يسمع
حركة ، فأخذ يقرعه قرعًا شديدًا ، ويهتف باسم « مرغريت » مرة
واسم « برودنس » أخرى ، فلم يجبه أحد ، فقال في نفسه : « لعلها ذهبت
إلى بيتها في باريس لبعض شأنها واستصحتب خادمتها ، ولا بد أن تعود
الآن . »

فجلس على صخرة أمام باب المنزل ينتظرها حتى مضت هدأة من الليل فلم
تعد ، فحدثته نفسه بالعودة إلى باريس للبحث عنها في مظان وجودها ، ثم
منعه من ذلك خوفه أن يسلك في ذهابه طريقًا غير الطريق التي تسلكها في
عودتها ، فاستمر في مكانه يقعد مرة ويقوم أخرى ، ويقف حينًا ويتمشى
أحيانًا ، ويحدث نفسه بكل حديث يمر بخاطر القليق المرتاع إلا حديث خيانتها
وغدرها .

ولم يزل في حيرته واضطرابه حتى رأى جذوة الفجر تدب في فحمة
الظلام ، فسأ ظنه ، وانتشرت عليه وساوسه وأوهامه ، وقال في نفسه :
« ما لمرغريت بد من شأن ، ولا بد لي من المصير إليها ، والنظر في الشأن الذي
شغلها ! » وكان القلق والسهر قد أخذًا مأخذهما من جسمه ونفسه من حيث
لا يشعر ؛ فمشى في طريقه إلى باريس يترنح ترنح الشارب الثمل حتى وصل
إلى منزل مرغريت وقد علا صدر النهار .

فراى حارس المنزل قد استيقظ من نومه ووقف بفأسه على شجرة الحديقة
يُشدّب أغصانها ، فسأله عن مرغريت ، فقال : « إنها حضرت هنا بالأمس
في منصرف النهار ووراءها خادمتها تحمل حقيبة كبيرة فصعدت إلى المنزل
فلبثت فيه ساعة ثم نزلت ، وقد لبست ثوبًا من أثواب الولايم ، فأعطتني
كتابًا ، وقالت لي إذا جاء هنا المسيو أرمان للسؤال عنى فأعطه إياه ، ثم ركبت
عربتها هي وخادمتها وانصرفت . »
قال : « ألا تعلم أين ذهبت ؟ »

قال : « أحسب أنى سمعتها تقول للحوذى عند ركوبها : إلى منزل المريكز
جان فيليب . »

فجمد أرمان في مكانه جمود الصنم ، واستحال لونه إلى صفرة الموت ،
ومر بخاطره مرور البرق ذلك الكتاب الذى رآه في يدها بعد عودته إليها من
مقابلة أبيه ، فتركه الحارس مكانه وذهب إلى غرفته ، وعاد إليه بالكتاب ،
فتناوله منه بيد مرتجفة ونشره وأمر نظره عليه إمرارًا فأحاط بما فيه للنظرة
الأولى ، فارتعد جسمه ارتعادًا شديدًا ، وتراجع خطوة أو خطوتين إلى باب
القصر ، فأسند ظهره إليه وأعاد قراءته ، فإذا هو مشتمل على هذه
الكلمات :

« هذا آخر ما بينى وبينك يا أرمان ؛ فلا تحدث نفسك بمعاودة الاتصال
بى ، ولا تسألنى عن السبب فى ذلك ، فلا سبب عندى إلا أنى هكذا أردت
لنفسى ، والسلام . »

فعلق نظره بالكتاب ساعة لا يرفع طرفه عنه ، ولا يقرأ منه حرفًا ، كأنما
هو تمثال من تماثيل الحديقة ، وكان الحارس قد عاد إلى شجرته يشدّب أغصانها
ويتغنى فى صعوده إليها وانحداره عنها بقطعة من الشعر الغرامى يعجبه لحنها ،

وإن كان لا يفهم معناها .
فإنه لكذلك إذ سمع صوت جسم ثقيل قد سقط على الأرض ، فرمى
بفأسه وهرع إلى ناحية الصوت فراى أرمان صريعًا مغفّرًا تحت عتبة الباب ،
ففرع فرعًا شديدًا وظنها الصرعة الكبرى ، فأهوى بأذنه إلى صدره ، فسمع
ما بقى من دقات قلبه ، فاطمأن قلبًا وعمد إلى جرة بين يديه فأخذ ينضح بمائها
وجبه ، ويدلك براحة يده صدره وصدغيه حتى استفاق بعد قليل ، ففتح
عينيه فراى الحارس جالسًا بجانبه ، ورأى الكتاب لا يزال فى يده . فدار بعينه
حول نفسه فمرت بخاطره فى الحال ذكرى مصرعه القديم فى هذا المكان عينه
منذ خمسة عشر شهرًا يوم ألقت مرغريت بنفسها عليه ورسمت على ثغره أول
قبلة من قبلات الحب ، فهاجته تلك الذكرى وصاح : « ما أبعد اليوم من
الأمس ! »

وأنشأ يبكى بكاء الطفل الذى حيل بينه وبين ثدى أمه ، حتى بكى
الحارس لبكائه وأقبل عليه يعزبه عن مصابه ، ويهونه عليه حتى هدأ قليلاً .
فأمره أن يستدعى له عربة ففعل ، فقام يتوكأ على يد الحارس حتى بلغها
فركب ، وقال للسائق : « إلى فندق تورين . » فسارت به العربة إليه ، حتى
إذا لم يبق بينه وبينه إلا منعطف واحد مرت بجانبه عربة فخمة مرور البرق
الخاطف ، تحمل رجلاً وامرأة لم يتبينهما للنظرة الأولى ، ثم راجع صورتها فى
خياله فإذا هما : « جان فيليب ومرغريت » ، وكانت مركبته قد وصلت به
إلى الفندق ، فدخل على أبيه هائمًا مختبلاً ، فقال :

« ما دهاك يا بنى ؟ ! »

قال : « فدخانتى يا أبتاه . »

قال : « ذلك ما أنذرتك به قبل يا بنى . »

قال : « وما تريد منها ؟ »
قال : « أحب أن أستأثر بهذا السر لنفسى من دون الناس جميعاً حتى من
دونك . »

فنظر إليه أبوه نظرة الملم بما دار في نفسه ولم يعاوده ، وأعطاه صكوكاً
بالمال الذى أراد ، فأخذها وأرسلها إلى مرغريت وأرسل معها كتاباً طويلاً
ختمه بهذه الكلمة :

« أما وقد عرفت أنى كنت أعيش مع امرأة عاهرة ساقطة لا عهد لها ولا ذمام ،
فها هي ذى أجره لياليك الماضية مرسله إليك . »

ثم خرج ليهد نفسه للسفر ، فقضى اليوم كله خارج الفندق ، ثم عاد إليه
ذئب النهار ؛ فوجد فيه كتاباً باسمه ففرض ختمه فاذا الأوراق التى أرسلها إلى
مرغريت عائدة إليه كما هي وليس معها كلمة واحدة ، فحاول أن يعيدها إليها
مرة أخرى ، فسمعه أبوه من ذلك وقال له : « قد وعدتني ألا تخالفني في أمر
فلا بد لك من الإذعان . » فأذعن ثم سائراً مما تلك الليلة إلى نيس .

كذلك قضى الله أن يفترق ذلك الصديقان الرفيقان والمشتقان المخلصان ،
فعاد الفتى إلى أحضان أبيه ، وعادت الفتاة إلى حياها الأولى التى كانت تأبأها
الإباء كله ، وتحافها الخوف الشديد ، وفي نفس كل منهما من الوجد بصاحبه
والحسرة عليه ما لا تبيته (١) ، ولا تنتقص منه السنون والأعوام .

الاشتياء في الدنيا كثير ، وأعظمهم شقاء ذلك الحزين الصابر الذى قضت
عليه ضرورة من ضروريات الحياة أن يهبط بالآلام وأحزانه إلى قرارة نفسه
فيوصفها هناك ، ثم يعلق دونها ياباً من الصمت والكتمان ، ثم يصعد إلى الناس

(١) تبيته : تنضمه .

ثم انقضى النهار ، وجاء الليل فقصاه أربمان ساهراً في مخدعه يراجع فهرس
حياته مع مرغريت صفحة صفحة ، ويستعرض في نفسه جميع أطوارها
وشؤونها فلم تبق حركة من حركاتها ، ولا كلمة من كلماتها ، ولا صورة من
صور أعمالها ، كان يراها بالأمس حسنة من حسنات الإخلاص والوفاء ، إلا
رأها اليوم سيئة من سيئات الخديعة والكر ، حتى وصل في مراجعتها إلى الأسى
والنوم الذى قبله .

فذكر عدم انتظارها إياه في شرفة البيت كما دأبها يوم عاد إليها من مقابلة
أبيه ، وشدة احتفاظها بكتاب الركب الكبير في يدها عندما دخل عليها غرقها وضنها
به ضناً شديداً ، ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، واعر اضرها عن التبسط معه في
الحديث بعدما قض عليها قصته مع أبيه ، وزعمها أنها مريضة خائفة لا تستطيع
البقاء معه ، وإلحاحها عليه في صباح اليوم الثالث إلحاحاً شديداً في العودة إلى
مقابلة أبيه واستعطائه ، وقولها إنها لا تكون راضية عن نفسها ولا هاتفة بعيشها
إن لم يكن أبوه راضياً عنه ، فاستفتح من هذا كله أنها مذ شعرت بفراغ يده
من المال وأن أباه يحول بينه وبينها وإما أن يقتر عليه الرزق فقترها ، ملته
واجتوته ، وفكرت في سبيل الخلاص منه ، ولم تزل تنتظر ما يأتيها به القدر
حتى أتاها بكتاب الركب الكبير فكان هو طريق خلاصها .

ولم يزل هاتفاً ما شاء الله أن يهيم في تصوراتها وأوامهه حتى غلبته عيناه
فهبج قليلاً ، ثم استيقظ في الصباح فدخل على أبيه في مخدعه ، وقال له :
« لى عندك أمنية يا أباه لا أريد غيرها وأريد أن أبايعها منك بخصموى لك
ونزولى على حكمتك أيد الدهر فيما سرتنى أو ساعنى ، فهل لك أن تبليغنيها ؟ »

قال : « وما هي ؟ »

قال : « أريد أن تعطبنى الساعة خمسة عشر ألف فراك . »

باش الوجه باسم الثغر متطلقاً متهللاً ، كأنه لا يحمل بين جنبيه همًا ولا كمدًا .

ذلك كان شأن « مرغريت » بعد عودتها إلى حياتها الأولى ، فقد أصبحت تعيش مع الناس بصورة غير الصورة التي تعيش بها مع نفسها ، أما حياتها مع الناس فحياة ضاحكة لاعبة مرحة وثابة ، تضيء المجامع والمحافل ، وتملأ الأنظار والأسماع ، فإذا ضمها مخدعها وخلا لها وجه الليل مرت أمام عينيها صورة تلك الساعات السعيدة التي قضتها بجانب « أرمان » .

ثم ذكرت أنها قد أفلتت من يدها إفلات الطائر من يد صائده ، وصارت بعيدة عنها بعد الشمس عن يد متناولها ، وأنها قد أصبحت تعيش بين أقوام لا تعرفهم ، ولا تجد في نفسها لذة الأنس بهم ، ثم لا تجد لها بدءًا من مبادئهم والتعجب إليهم والتعجب لهم بما يريدون ويشتهون ، فتقبل الأفواه التي لا تشتهيها وتعتنق القامات التي لا تطيق رؤيتها ، وتشرب مع كل شارب ، والشراب يحرق أحشاءها ، وترقص مع كل راقص ، والرقص يمزق أوصالها ، وتضحك ضحكات السرور من قلب باك ، وتتشد أناشيد الهناء من فؤاد محترق .

فكأنها في يد الناس العود في يد المغنى يقطع أوتاره ضربًا ليضطرب لنغماته ، أو الزهرة في يد المقتطف يعصر أوراقها عصرًا لينعم بشذاها ، فتبهجها ذكرى ذلك الماضي السعيد ، وهذا الحاضر الشقي ، فتطلق السبيل لزفرتها وعبراتها يصعد منها ما يصعد ، وينحدر ما ينحدر ، حتى تشتفى نفسها ، فتقوم إلى خزانة ملابسها فتستخرج منها صورة تضعها بين سحرها ونحرها ، ثم تأوى إلى مضجعها فتجد برد الراحة في صدرها لأنها صورة أرمان .

ولم تنزل تكابد من الشقاء في تلك الحياة الساقطة وآلامها ما لا طاقة لمثلها

باحتمال مثله ، حتى استيقظ في صدرها داؤها القديم بعدما نام عنها حينًا من الدهر ، فهزل جسمها وشحب لونها وغاض ماء ابتسامتها وانطفأ شعاع نظراتها ، وشغلها شأن نفسها عن شأن المركز فلم يلبث أن ملها وفارقها ، واستبدل بها أخرى غيرها . ثم اختلف عليها من بعده الأصدقاء الرفقاء فكان شأنهم معها شأنه ، لا يلبث أحدهم أن يعرفها حتى يهجرها ؛ فكسدت سلعتها في سوق الجمال ، وطمع فيها من لم يكن يطمع قبل اليوم في لثم مواطني أقدامها ، وخلت منها المجامع والمحافل ، ثم خلت من ذكرها وحديثها ، وأعوزها المال إعوازًا شديدًا ؛ فمدت يدها إلى ما كان باقيا عندها من جواهرها ولآلئها فباعته فلم يف بدنيا ، فطلبت المعونة من كثير من أصدقائها الماضين ، فأرسل إليها قليل منهم القليل منها ، فلم يغن عنها شيئًا .

واختلفت إليها جرائد الحساب يطلب أصحابها سداد ما فيها ، فدافعتهم عنها حينًا ثم عجزت ، فحجزوا على جميع مقتنياتها وذخائرها وأثاث بينها ورياشه . ولزموا في مقاضاتها لئلا تضاعف حزنها ومرضها ، وقضى على بقية ما كانت تضمرة في نفسها من الأمل في الحياة والسعادة فيها ، فنسيت العالم خيره وشره والحياة سعادتها وشقاءها ، وأصبحت لا تفكر إلا في أمر واحد تقوم وتقعده ليلها ونهارها ، وهو أن ترى أرمان ساعة واحدة قبل موتها ، ثم تذهب إلى ربها .

ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم كلمة واحدة منذ فارقها ولا كتبت إليها ؛ فنهضت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى منضدتها فكتبت إليه هذا الكتاب :

« تعال إلي يا أرمان راضيًا كنت أو غاضبًا ؛ فإنني مريضة مشرفة وأحب أن أراك قبل موتى ، لأفضى لك بسر الذنب الذي أذنبته إليك فيما مضى ،

والذى لا تزال واجداً على بسببه حتى اليوم ؛ فلعلك تعفو عنى فى ساعتى
الأخيرة فىكون عفوك ورضاك هو كل ما أتزوده من هذه الحياة لقبرى ،
واذكر يا أرمان ، أن أول عاطفة جمعت بينى وبينك وألفت بين قلبى وقلبك ،
كانت عاطفة الرحمة والشفقة ، فها هى الفتاة المريضة المسكينة التى رحمتها
بالأمس وعطفت عليها قبل أن تحبها تدعوك اليوم أن ترحمها وتعطف عليها ،
وإن تكن قد سلوتها . أما كتابك الذى كتبه إلتى قبل سفرك فقد اغتصرت لك
كل ما فيه ، حتى قولك إلتى كنت كاذبة فى حبك ، طامعة فى مالك ؛ لأنى
أعلم أن المرأة التى تكذب الناس فى حبها طول حياتها لا يمكن أن تجد من
يصدقها إذا صدقت فيه ، وعدل من الله كل ما صنع .»

ثم لبثت تنتظر حضوره أياماً طويلاً فلم يأت ، فأحزنها ذلك حزناً شديداً ،
وساء ظنّها به ، ووقع فى نفسها أنه قد سلاها واطرحها ، وأصبح لا يعبأ بها ،
ولا يبالي بحياتها أو موتها ، وسعادتها أو شقتها ، وكانت مخطئة فيما ظنت .
فإن أرمان لم يطلع على الكتاب الذى أرسلته إليه مذ فارقتها فى العام الماضى
وسافر إلى « نيس » ولم يستطع البقاء فيها إلا أياماً قلائل ، ثم ملكه الضجر
وأحاطت به الوحشة ، وضاعت فى وجهه مذاهب السلوى فاستأذن من أبيه
أن يسافر إلى بعض بلاد المشرق ترويحاً عن نفسه وتفریحاً من كربته ، فأذن
له فسافر إلى الإسكندرية فأقام بها بضعة أشهر كاتب أباه فيها قليلاً ، ثم تركها
وأخذ يتنقل فى أنحاء البلاد لا ينزل ببلد حتى يطير به الضجر إلى غيره ،
فانقطعت رسائله عن أبيه ، فأصبح لا يعلم مكان وجوده .

فلما أرسلت مرغريت إليه كتابها فى نيس قرأه أبوه وحفظه عنده ولم
يستطع أن يرسله إليه ، ومرغريت لا تعلم بشيء من ذلك ؛ فحزنت لحياة
أملها حزناً شديداً ، ودب اليأس فى قلبها ديب الموت فى الحياة ، ووقع فى

نفسها أنها ستخرج من الدنيا فارغة اليد من كل شيء حتى من هذه الأمانة التى
بقيت فى يدها من بين جميع آمالها الضائعة .

فتنكر شأنها ، واستحالت حالها ، ولجأت إلى صمت طويل لا تقول فيه
خيراً ولا شراً ، وأصبحت تنظر إلى نفسها وإلى ما يحيط بها من الأشياء كأنها
تنظر إلى شيء تنكره ولا تعرفه ؛ فربما دخل عليها طبييبها وهى فى أشد حالات
ألمها فلا تشكر له ألماً ، أو سمعت ضوضاء الدائنين وصخبهم فى فناء المنزل فلا
تسأل ماذا يريدون !

وكانت إذا شعرت بقليل من الراحة والسكون ركبت عربتها إلى بوجيفال
فزارت البيت الذى قضت فيه أيام سعادتها الذاهبة ، وكان لا يزال باقياً على
الصورة التى تركه عليها يوم فارقه ومرت بغرفة وقاعاته ، وجلست فى كل
مكان كانت تجلس فيه مع أرمان ، وأشرفت من كل نافذة كان يشرف منها
معها ، وقبلت جميع آثاره وبقياته ، ولثمت الكأس التى كان يشرب بها ،
والزهرة التى كان يحبها ، والقلم الذى كان يكتب به ، والكتاب الذى كان
يقرأ فيه .

فإذا نال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها ، فربما
طار بها خيالها إلى ذلك العهد القديم ، فتمثل لها أن أرمان جالس تحت قدميها
يسرد عليها حادثة من حوادث طفولته فى نيس ، أو يئشها ما يضمه لها فى نفسه
من الوجد والغرام ، فتبتسم لحديته ابتسام السعيد الهانئ ، وتستشعر فى نفسها
لذة لا يشعر بمثلها إلا المتقون فى جنات النعيم ، ثم تفتح عينها فلا ترى أمامها
غير الوحشة والسكون ، والوحدة والانفراد ، فتبكي ما شاء الله أن تفعل ،
ثم تعود إلى بيتها فى باريس ، فتجلس على كرسيها بجانب منضدتها وتناجى
أرمان فى مذكراتها بجميع ما تحدثها به نفسها كأنه حاضر بين يديها يراها
ويسمعها !

« فلما قرأتها علمت ماذا يريد من تلك المقابلة ، وشعرت بما وراءها ، بل علمت بما دار بينك وبينه من الحديث ، وأنتك امتنعت عليه حتى يش منك ، فحاول أن يدخل عليك من بابي ؛ فحدثتني نفسي أن أرفض مقابلته ، وأن أكاشفك بكل شيء ، ثم استحييت من نفسي ، وأكبرت أن يعتمد علي رجل شريف كأبيك في كتاب سر بسيط كهذا السر فلا يجديني عند ظنه ، وطمعت في أن أنال منه عند المقابلة ما يطمع أن يناله مني ، فكتمتكم أمر الرسالة ، وكتمتكم ما في نفسي منها . ولم أكن كاذبة في شكاتي وألمي حينما قلت لك في تلك الليلة : « إنني لا أستطيع البقاء بجانبك » وسألتك أن تقودني إلى مخدعي ؛ فقد قضيت في فراشي بعدما فارقتك ليلة لم أقض مثلها في جميع ما مر لي من ليالي الهموم والأحزان حتى أصبح الصباح فألححت عليك أن تذهب لمقابلة أبيك ، وأنا أعلم أنك إن ذهبت إليه لا تراه ، ولا تنتفع بمقابلته إن رأيته ، ولكنني خفت أن يزورني فيراك عندي فأصغر في عينيه ، ولا أشد علي من ذلك .

« وما هي إلا لحظات قليلة حتى وصل إلى بوجيفال في الموعد الذي ضربه في كتابه ، فاستأذن علي فأذنت له ، فدخل فرأيت في عينيه جمر من الغضب تلتهب التهايا ، فلم أحفل بها ، ودعوته للجلوس فلم يفعل ، ولم يجيني بيده ، ولا بلسانه .

« وكان أول ما استقبلني به قوله : ماذا تريد من أن تصنعني بولدي أيتها السيدة ؟ وظل ناظرًا إلي نظرًا جامدًا ساكنًا لا يطفرف ، ولا يبتلع ! فعجبت لمدخله الغريب ، ونظراته المترفعة ، ولهجته الجافة الخشنة ، وامتنعت في نفسي امتعاضًا شديدًا حتى كدت أقول له ، ولا أكتمك ذلك : تذكر يا سيدي أنك في منزلي ، وأنني لم أدعك إلى زيارتي ، بل أنت الذي دعوت

مذكرات مرغريت

١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٠

« أرمان :

« لم تكتب إلي ولم تأتني ، كأنما ظننت أني أريد أن أستعيد معك عهد الماضي ، وأين أنا من ذلك العهد ! فلو رأيتني لرأيت امرأة ذائبة مدبرة لا تصلح لشأن من شئون الحياة ، ولم يبق فيها من صورتها الماضية إلا كما بقي من الزهرة الساقطة عن غصنها بعد ما عصفت الريح بأوراقها ، وكل ما كنت أريده منك ، أن أراك بجانب فراشي في ساعتى الأخيرة ؛ لأعتذر لك عن ذنبي الذي أذنبته إليك ، ثم أنظر إليك نظرة وداع أغمض عليها جفني وأذهب بها إلى قبري .

« ما أنا بخائنة يا أرمان ولا خادعة ، فإن الرسالة التي رأيتها في يدي يوم عدت إلي من مقابلة أبيك ليست رسالة المركيز كما ظننت ، بل رسالة أبيك نفسه وصلت منه قبل وصولك إلى بوجيفال بساعة واحدة ؛ وهذا نصها الذي لا يزال عالقًا بذهني حتى الساعة :

« سيدتي :

« أريد أن أقابلك غدًا في منزلك في الساعة العاشرة صباحًا في شأن خاص لي وبك ، وأريد ألا يكون « أرمان » حاضرًا تلك المقابلة ولا عالمًا بها ، ولا بأني أرسلت هذه الرسالة إليك ، ولي من حسن الرأي فيك ما يطعمني في أن يكون ما سألتك إياه سرًا بيني وبينك حتى نلتقى . والسلام »

دوفال

نفسك بنفسك .

« ثم ذكرت مكانه منك فأمسكت عن كل شيء حتى عن الجواب على سؤاله ، فمشى يضرب الأرض بعصاه ويقدمه حتى دنا مني ، وألقى عليّ تلك النظرة التي اعتاد الأشراف المترفعون أن يلقوها في طريقهم على وجوه النساء العاهرات ، وقال : لقد أنفق ولدي عليك جميع ما كان بيده من المال ، وكان في يده الكثير منه ، ثم جميع ما أرسلته إليه بعد ذلك ، وقد أرسلت إليه فوق طاقتي ، فلم يبق في استطاعته أن يمدك بأكثر مما أمدك ، ولا في استطاعتي أن أستنزل له من السماء ذهبًا يمطره عليك ، فدعيه وشأنه ، فالبلد مملوء بالأبناء الذين لا يحتاج أبائهم إليهم والذين لا يحتاجون إلى أنفسهم . أما أنا فأني في حاجة إلى ولدي ؛ لأنني لم أرزق ولداً سواه ، ومن كانت بيده هذه الثروة من الجمال التي تملكينها لا يضيق به مذهب من مذاهب العيش ، ولا يتلوى عليه مأرب من مأرب الحياة .

فسرت كلماته في نفسي سريان الحمى في عظام المحموم وخيل إليّ أن هذا المائل أمامي لا يحدثني ، إنما يجرعني السم بيده تجرعاً ، وشعرت بذلة لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي ، إلا أنني تجلددت واستمسكت ورددت نفسي على مكروها ، وقلت له بصوت هادئ ساكن لا يمازجه غضب ولا نزق : لا يا سيدي ، نعم إنني أحب ولدك ، ولكني لا أطمع فيه ، ولو كان الذي يعينني منه الطمع في ماله لفارقت منذ ثلاثة شهور ، أي منذ خلعت يده من المال وأصبح لا يجد السبيل إليه بحال من الأحوال ، بل لفارقت قبل ذلك لأن الذين لا يزالون يساومونني في نفسي من أشراف هذا البلد ونبلائه منذ اتصلت به حتى اليوم أفضل منه وأكثر رغداً . على أن ولدك لم ينفق عليّ من هذا المال الذي تذكره إلا النزر القليل ، وربما أنفق باقيه على نفسه ؛ ولو استطعت أن

أرفض ذلك القليل وآباه لفعلت ، ولكنني كنت أضن به أن يداخل نفسه ما يريها أو يؤلمها ؛ فقبلت منه هداياه الصغيرة التي كان يقدمها إليّ من حين إلى حين إرعاء عليه ، وإبقاء على عزة نفسه وكرامتها ، ولو أن ما كان بيده من المال انتقل إلى يدي ، كما تقول ، لأصبحت غنية موفورة ، لا أحمل همًا من هموم العيش ، ولا أعاني من بأساء الحياة وضرائها ما أعانيه اليوم !

« فأني ، لو تبينت أمرى ، امرأة فقيرة معوزة لا أملك من متاع الدنيا إلا حلاى ومركبتي وأثاث بيتي ، وليتها كانت خالصة لي ، فقد امتدت يد الضرورة إليها منذ عهد قريب ، فأصبح الكثير منها سلعة في يد المرابين ، ولا أعلم ما يأتي به الغد . وإن أبيت إلا أن تعرف ذلك بنفسك فسأطلعك على ما كتمته عن الناس جميعاً حتى عن ولدك . » ثم قمت إلى خزانة أوراقي ، فجثته منها بالصكوك والوثائق المشتملة على بيع ما بعث من جواهرى وخيولى وأثاث بيتي ورهن مارهنت منها ، فظل يقلبها بين يديه ساعة ، ويتأمل في تاريخها طويلاً ثم طواها وأعادها إليّ مطرقاً صامتاً لا يقول شيئاً . ومد يده إلى كرسي بين يديه فاجتذبه إليه وجلس عليه معتمداً برأسه على عصاه ، وقد هدأت في نفسه تلك الثورة التي كانت تضطرم وتعتلج منذ دخوله ، وطارت عن وجهه تلك الغبرة السوداء التي كانت تظلمه من قبل . فعدت إلى حديثي معه أقول : « على أنني يا سيدي غير شاكية ولا ناظمة ، فقد مر بي من ثوب الأيام وأرزائها ما محأ من نفسي كل شهوة من شهوات الحياة وأنساني جميع مظاهر الدنيا ومفاخرها ، فأصبحت لا أبالي بما تأتي به الأيام ، وسواء لديّ الفقر والغنى ، والحلّى والعطل ، وسكنى القصر وسكنى الكوخ ، وركوب المركبة وركوب النعل .

« وكل ما أرجو من حياتي وأضرع إلى الله وإليك فيه ، أن أرى أركان

يقاسمى هم الحياة وبؤسها ، ويعينى على شدتها ولأوائها حتى يقضى الله فى امرى بما هو قاض .

« فإن كان فى الأجل فسحة قضيتها فى شكرك وحمدك ، والإخلاص لك فى سرى وعلنى ، وإن كانت الأخرى كان آخر ما أنطق به فى ساعتى الأخيرة أن أدعو لك الله تعالى ضارعة مبتهلة أن يبارك لك فى نفسك ، وفى أهلك ، وأن يسبل ستره الضافى عليك فى حاضرک ومستقبلک ! »

« ثم جثوت بين يديه وتعلقت بأهداب ثوبه ، وقد عجزت فى تلك الساعة عن أن أملك من دموعى ما كنت مالكة من قبل ، فظلمت أبكى ، وأقول : رحماك يا مولاي ، إننى امرأة بائسة مسكينة قد قضت على بعض ضرورات العيش فى فاتحة حياتى أن أقف على حافة تلك الهوة التى يقف على رأسها النساء الجائعات ؛ فسقطت فيها كارهة مرغمة ، ثم أردت نفسى على الرضا بتلك الحياة التى قدرها الله لى فلم أستطع ، فأصبحت فى منزلة بين المنزلتين ، لا أنا شريفة أنعم بعيش النساء الشريفات ، ولا ميتة القلب أسعد سعادة الفتيات الساقطات . وقد وجدت فى ولدك الرجل الوحيد الذى أحبنى لنفسى ، ومنحنى من وده وإخلاصه ما ضن به على الناس جميعاً ، فأنست به أنساً أنسانى سقوطى وعارى ، وحبب لى الحياة بعدما أبغضتها وبرمت بها ، وكدت أقضى على نفسى بالخلاص منها ، فلا تحمنى جواره ، ولا تفرق بينى وبينه ؛ فإنك إن فعلت أشقيتنى وبرحت لى ، وملاأت حياتى همًا وكمداً ، وأنت أجل من أن ترضى لنفسك بأن تبني سعادتك وهناءك على شقاء امرأة مسكينة مثلى .

« ماذا يكون مصيرى غداً إذا أصبحت وحيدة منقطعة فى هذا العالم لا صديق لى ولا معين ؟ أعود لى حياتى التى أبغضها وأخشأها ؛ فأعود لى

جرائمى وآثامى ؟ أم أقتل نفسى فراراً من شقاء الدنيا وبلائها ؛ فأختم حياتى بأقيح مما ختم امرؤ به حياته ؟ لا أستطيع واحدة من هاتين ، فامدد لى يدك البيضاء ، وأنقذنى من هذه الهوة العميقة التى لا يستطيع أحد أن ينقذنى منها سواك .

« أنا أعلم أنك فى حاجة لى ولدك ، وأنتك أولى به من كل مخلوق على وجه الأرض ، ولكنى أعلم أنك شقوق رحيم لا تأبى أن تنصدق على امرأة مريضة بائسة مثلئ بساعات من السعادة تتعلل بها فى مرضها الذى تكابده حتى يوافيها أجلها . لا أسالك ياسيدى مالاً ولا نسباً ولا عرضاً من أعراض الحياة ؛ بل أسألك أن تأذن لأرمان بالبقاء معى ؛ فإن فى بقاءه بقاء حياتى وسعادتى ، فتصدق بهما على لى إنك من المحسنين . »

« وهنا شعرت كأنه يتحرك فى كرسبه فخفق قلبى خفقاناً شديداً ، ثم رفع رأسه ونظر لى نظرة أهدأ نارا وأقصر شعاعاً من نظرتة الأولى ، وقال : « ومن أين تعيشان ؟ »

« قلت : عندى بقية من جواهرى وحلاى سأبيعهما وأعيش بثمرها معى فى زاوية من زوايا باريس عيش الفقراء المُقلين ، لا يرانا أحد ، ولا يشعر بوجودنا شاعر ، وحسبنا الحب سعادة نغنى بها عن كل سعادة فى هذا العالم وهناء ! »

« قال : ذلك هو الشقاء بعينه ؛ فإن الحب نبات ظل تقتله شمس الشقاء الحارة ، وكل سعادة فى العالم غير مستمدة من سعادة المال أو لاجئة إلى ظلاله فهى كاذبة لا وجود لها فى سوانح الخيال .

« أنتما اليوم سعيدان لأن فى يدكما مالاً تعيشان به ، ولأنكما تسكنان هذا المنزل البديع ، فوق هذه الهضبة العالية ، بجانب هذه البحيرة الجميلة ، فإذا

خلت يدك من المال ، وحرمتها هذا النعيم الذى تمنعان به شقيتا وشغلكما شأن نفسيكما عن شأن الحب ولذائده ، وسرى إلى نفسيكما الضجر والملل ، وربما امتدت تلك السامة بينكما إلى أبعد غايتها .

« إن للحب فنوناً من الجنون ، وأقبح فنونه أن يعتقد المتحابان أن حبهما دائم لا تغيره حوادث الأيام ، ولا تنال منه الصروف والغير ، ولو عفلا لعلمنا أن الحب لون من ألوان النفس ، وعرض من أعراضها الطائرة ، تأتي به شهوة وتذهب به أخرى ، ولا يذهب به المثل مثل الفاقة إذا اشتدت واستحكمت حلقاتها ، فإن النفس تطلب حياتها وبقائها ، قبل أن تطلب لذائدها وشهواتها !

« أنا أعلم من شأن ولدى يا سيدتى ما لا تعلمين ، وأعلم أنه لا يستطيع أن يعيش هذه العيشة النكداء التى تظنين ، وهو فتى فقير لا يملك من الدنيا إلا قطعة صغيرة من الأرض ورثها عن أمه لا تغنى عنه ولا عنك شيئاً . وما أنا بذى ثروة طائلة أستطيع أن أحفظ له بها زمناً طويلاً هذا العيش السعيد الرغد الذى يعيشه اليوم فى باريس ، فلم يبق بين يديه إلا أن يعيش بمالك ، وهو ما لا أرضاه له ولا يرضاه لنفسه . واسمحي لى يا سيدتى أن أقول لك : إن جميع مصائب الدنيا وأرزائها أهون علقى وعليه من أن يقول الناس إن خليلة أركان دوفال قد باعت جواهرها وحلاها التى أهداها إليها عشاقها الماضون لتتفق ثمنها عليه .

« سامحني يا بنتي ، واغتفري لى حدتى وخشونتى ، فإن شديداً جداً على والد شيخ مثلى أن يرى ولده الذى وضع فيه كل آمال بيته يهوى أمام عينيه فى هذه الهوة السحيقة التى لا قرار لها دون أن يطير قلبه خوفاً وهلعاً .

« إنه منذ عرفك نسيني ونسى أخته ، فلا يذكرني ولا يذكرها ، وقد

مرضت منذ شهور مرضاً مشرفاً فكتبت إليه أن يأتي ليعودنى فلم يفعل ، ولم يرد على كتابي ، أى أنتى كنت على وشك أن أموت ولا أراه ، ولو تم ذلك لذهبت إلى قبرى بحسرة لم يحمل مثلها فى صدره راحل عن الدنيا من قبلى !

« أنت صادقة يا سيدتى فى قولك إنه لم ينفق عليك جميع ما كان بيده من المال ؛ لأننى علمت بالأمس أنه قامر منذ عهد قريب ، وخسر فى مقامرته كثيراً ، كما علمت أنك لا تعلمين شيئاً من ذلك فما يؤمننى إن أنا تركته فى هذا البلد ألا يستمر فى هذه الغواية الجديدة التى خطا الخطوات الأولى فى طريقها ، ولا يخسر فى بعض مواقفه خسارة عظيمة لأجدلى بدأ من أن آخذ بيده فيها ، فأقدم إليه ذخر شيخوختى ، ومهر ابنتى ؛ فهلك نحن الثلاثة فى يوم واحد ؟

« من أين لك يا بنتي أنه إن طال عهده بك لا يملك ، ولا تمتد عينه إلى امرأة سواك ، فتكون فجيعتك فيه غداً شراً من فجيعتك فيه اليوم ؟ ومن أين له أنك لا تضيقين ذرعاً يوماً من الأيام بعيشة الوحشة والوحدة فتحنين إلى حياتك الأولى ؛ حياة الأناجى والاجتماع ، والضوضاء واللجب ، وهو فتى غيور مُستطار ، وربما أنفت نفسه أن يزاحمه فيك مزاحم ، وربما امتدت يده بشرى إلى ذلك الذى يزاحمه ، فتنازلا ، فأصابته من يد منازله ضربة تقضى على حياته وتفجعنى فيه ؟

« كيف يكون موقفك يا سيدتى غداً إن نفذ فيه هذا السهم من القضاء أمام هذا الأب الناكث المسكين إذا جاءك يسألك عن دم ولده ؟ وكيف تكون الأم نفسك ولو اعجبها أمام مشهد بكائه وتفجعه ؟

« ثم ارتعش ارتعاشاً شديداً ، وظل نظره حائراً مضطرباً كأنما يخيل إليه أنه يرى أمام عينيه ذلك المنظر الذى يتحدث عنه ، ثم سكن قليلاً ، ونظر إلى نظرة هادئة مملوءة عطفاً وحناناً ، وأنشأ يقول :

« مرغريت ، أنت أعظم في عيني مما كنت أظن ، وأكرم نفساً من أولئك النساء اللواتي يزعمن أنك واحدة منهن ، وقد وجدت فيك من فضائل النفس ومزاياها ما لم أجده إلا قليلاً في أفئدة الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ، ولو قسم الشرف بين الناس على مقدار فضائلهم وصفاتهم لكان نصيبك منه أوفر الأنصبة وأوفاها .

« لا أنسى لك يا مرغريت ما دمت حياً كتابتك أمر الكتاب الذي أرسلته إليك ، واحتفاظك بسرّه في ساعة تنفرج فيها الصدور عن مكثوناتها ، ولا سكوتك وإغضاءك — وأنت في منزلك ، وموضع أمرك ونهيك — أمام حدتي وخشونتي وجنون غضبي ، ولا بذلك ما بذلت من ذات نفسك وذات يدك لولدى — من حيث لا يعلم — وفاءً له وإبقاءً على عزة نفسه وكرامتها !

« لقد كانت ضحيتك التي قدمتها لولدى بالأمس عظيمة جداً ، واليوم جئتك أطلب إليك أن تقدمي ضحية أعظم منها لابنتي ولا معتمد لي أعتد عليه في تلبية رجائي عندك إلا شرف نفسك وفضيلتها .

« لقد تركت « سوزان » ورائي تتقلب على فراش المرض ، وتكابده منه فوق ما يحتمل جسمها الناشئ الغض ؛ لأن خطيبها الذي تجبه حباً جماً قد هجرها منذ شهرين فلا يزورها ولا تراه ، وقد كنت أجهل قبل اليوم سبب مرضها إلا الظن والتقدير حتى سهرت بجانب فراشها ليلة كانت الحمى فيها قد نالت منها منالاً عظيماً ، ووصلت بها إلى درجة الخبل والهذيان ، فسمعتها تهتف باسم خطيبها مرات كثيراً ، وتبكي كلما جرى ذكره على لسانها كأنها حاضرة مستفيقة ، فعلمت موضع دائها ، وذهبت في اليوم الثاني إلى والد ذلك الخطيب أسأله عما راب ولده من أمر ابنتي ، وقطعه عن زيارتها ، فذكر لي سبباً غريباً لك فيه يا سيدتي بعض الشأن ، فإن أذنت لي حدثتك حديثه .

« فحقق قلبي خفقاناً شديداً ، وأحسست بالشر يدنو مني رويداً رويداً ، إلا أنني تماسكت ، وقلت له : نعم آذن لك يا سيدي . لقد أجباني الرجل على سؤالي بقوله : إن أسرتي أسرة شريفة لا تصاهر إلا أسرة شريفة مثلها من جميع وجهها ، وقد عرفت أسلوب المعيشة السافلة التي يعيشها ولدك في باريس ، إنه يعاشر منذ عهد طويل امرأة مومساً معروفة هناك معاشرة تهتك وتبذل يشهدها الناس جميعاً ، ولا أسمح لنفسى أن يكون مثل ولدك في تبذله واستهتاره ، وصغر نفسه وفُسولتها (١) صهراً لولدى ولا عازراً على بيتي . فاستقبلت خشونته وجفاءه بصبر واحتئال ؛ لأن الخوف على ابنتي شغلني عن الغضب لنفسى ، وقلت له : أوائتق أنت مما تقول ؟ فأدلى لي بما أفتعنى ، فلم أربداً من أن أسلم له بصواب ما فعل ، وسألته أن لا يبيت في أمر الخطبة شيئاً حتى أسافر إلى باريس وأعود منها .

« ذلك ما حملني على المجئ إلى باريس . وهذه هي قصتي التي جئت أعرضها عليك ، وأنتظر حكمك فيها ، وقد كتمتها عن الناس جميعاً حتى عن ولدى أرماني ؛ فانظري ماذا تأمرين ؟ »

« وهنا أطرق برأسه طويلاً ، ثم رفعها ، فإذا عبرة تترقق في عينيه ، وإذا هو يحاول الكلام فلا يستطيعه ، فرحمته مما به ، وأعظمت مصابه حتى نسيت مصابي بجانبه ، وساد السكون بيننا ساعة لا يقول لي شيئاً ، ولا أدرى ماذا أقول ، حتى هداً نأثره قليلاً ، فمد يده إلى يدي فأخذها بين ذراعيه ، وعاد إلى حديثه يقول :

« مرغريت ، إن حياة ابنتي بين يديك ، فامنحيني إياها تتخذني عندي

(١) الفسولة : الانحطاط وضعف المروعة .

يدًا لا أنساها لك حتى الموت .

« إننى لا أستطيع أن أراها تموت بين يدي . ولو تم ذلك لمك على أثرها حزناً وكمداً ، وضمناً في يوم واحد قبر واحد ؛ لقد رأيت مصرع أمها منذ خمس سنين ، ولا يزال أثره باقياً في نفسى حتى اليوم ، ولا أستطيع أن أرى هذا المشهد مرة أخرى في ابنتها وصورتها الباقية عندي من بعدها .

« إننى أحبها حباً جماً ، ولا أستطيع أن أراها في ساعة من ساعاتها حزينة أو مكتئبة ؛ فكيف أن أراها تعالج سكرات الموت !

« إنك لا تعرفينها يا مرغريت ، وأعتقد أنك لو رأيتها لأحببتها كما أحبها ، ولرحمتها كما أرحمها ، ولفديتها بما تستطيعين رافة بها وإشفاقاً عليها .

« إنها جميلة جداً ، وببضاء مثل الكوكب ، وطاهرة طاهرة الملك ، وغريرة غرارة الطفل ، فاسمحي لهذه الحياة الغضة الزاهرة بالبقاء والسعادة ؛ فإنها لا تستحق الشقاء .

« إنها اليوم تعيش بالأمل الذى أودعته قلبها يوم سفرى ، فإن عدت إليها بالخيبة عدت إليها باليأس القاتل والقضاء النازل !

« إنك تحبين أرمان يا مرغريت ، وقد أصبحت أعتقد أنك مخلصه في حبه إخلاصاً عظيماً ، فاصنعى ما يصنع المحبون المخلصون ، وضحي حبك من أجله ، ومن أجل مستقبله ، فإلا تفعل ذلك من أجله ، فافعليه من أجلى .

« لقد قلت لى إنه الرجل الوحيد الذى أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسه . فبادليه هذا الحب ، بل كوني خيراً منه فيه ، وليكن عزائك عما تلاقيه بعد فراقه من حزن وألم أنه قد أصبح سعيداً من بعدك ، وأنت قد أنقذت من يد الموت فتاة مسكينة ، ومن يد الشقاء شيخاً حزيناً . وهنا اختنق صوته بالبكاء فهبط على كرسيه بين يدي ، وقال بِنَعْمَة المشرف المحتضر :

« ارحمىنى يا مرغريت ، واشفقى على ضعفى وشيخوختى ، وتصدق علىّ بمستقبل ولدى ، وحياة ابنتى .

« ثم لم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئاً ، فألقى رأسه على كرسيه الذى كان جالساً عليه وانفجر باكياً .

« آه لو رأيتنى يا أرمان فى موقفى هذا ، ورأيت لوعتى وتفجعى ودموعى المنهمرة على خدى انهمار الديمة الوطفاء رحمة بأبيك وإشفاقاً عليه !

« لقد كان يتكلم فتسيل مدامعى مع حروفه وكلماته ، كأنما هو ينشد مرثية محزنة ، أنا المبكية عليها فيها !

« إن العظيم عظيم فى كل شىء حتى فى أحزانه وآلامه، فلقد كان يخيل إلى وأبوك ييكى بين يدي ويتحب أن كل دمعة من دموعه تستنزل غضب الله على الأرض ، وكل زفرة من زفراته تلتبب بها آفاق السماء .

« لقد أكبرت فى نفسى جداً أن يجثو مثل هذا الشيخ الشريف الطاهر بين يدي فتاة ساقطة مثلى ، واستحييت من ذلك حياء تمنيت معه أن لو انشقت الأرض تحت قدمى فسبحت فيها أبد الدهر .

« وبينما هو مطرق صامت أخذت أفكر فيه ، وفى مصابه ، وفى قصته التى قصها علىّ ، وفى الشأن الذى لى فيها ؛ فعلمت أنى قد أصبحت شؤماً على هذه الأسرة السعيدة جميعها ، أيتها وابنتها وابنتها ، فتقلت نفسى علىّ ، وسمج منظرها فى عيني ، حتى خيل إلى أنها لو كانت حاضرة بين يدي لرميت بها من حالق إلى حيث لا يجمعنى وإياها مكان بعد اليوم .

« ثم قلت فى نفسى : إن حياتى الماضية التى قضيتها فى الشرور والآثام قد قطعت علىّ طريق الشرف ، فلا حق لى فى أن أطمع فى حياة الشرفاء ، ولا أن أنازعهم سعادتهم وهناءهم ، وإن الإثم الذى اقترفته فى ماضى قد أتمته

وحدى ، فلا بد لي أن أستقل بعبيته دون أن ألقيه على عاتق أحد غيري ، فإن كان مقدراً علي أن أموت موت النساء الساقطات ؛ فذلك لأنني امرأة ساقطة ، أو ألاق في مستقبل حياتي شقاءً وآلاماً ؛ فذلك لأن المستقبل نتيجة الماضي وثمرته الطبيعية .

« هنا ذكرتك يا أرمان ، وذكرت فراقك وكيف أستطيعه ، وذكرت أنا التي سأتولى قتل نفسي بيدي ؛ لأن الطريق التي لا طريق غير ها إلى بلوغ رضا أبيك وموافاة رغبته ، أن أقاطعك وأغاضبك ، وأظهر أمامك بمظهر الخائنة الغادرة . وربما اضطررت إلى الاتصال بغيرك على مرأى منك ومسمع ، حتى تنصرف عني انصراف يائس مغلوب على أمره من حيث لا يكون لأبيك مدخل في ذلك ، فأكون قد جمعت على نفسي بين فراقك وغضبك في آن واحد . وذكرت أن لا بد لي متى فارتك أن أعود إلى حياتي الأولى التي أبغضها وأمقتها ؛ لأن الدوق موهان لم يستطع أن ينسى ذنبي الذي أذنبته إليه حتى اليوم ، ولأنني في حاجة إلى بسطة من العيش أستعين بها على معالجة مرضي ووفاء ديني . فدارت هذه الخواطر في رأسي ساعة ، وطالت دورتها حتى كادت تغلبنى على أمرى ، ثم وقع نظري على وجه أبيك المخضبل بدموعه فتجلدت وجمعت أمرى ومضيت قدماً لا ألقى على شيء مما ورأى .

« لقد كان شديدًا عليّ جدًا أن أفارقك يا أرمان ، ولكن كان أشد عليّ منه أن أرى أباك يكى بين يدي ، وأن أكون سببًا في موت أختك أو شقاتها .

« إنني أحب يا أرمان ، وأعرف آلام الحب ولوعته في النفوس ، ولقد كان يخيل إليّ وأبوك يحدثنى عن أختك وشقاتها أنني أراها من خلال دموعي طريجة فراشها ، وهي تمد يدها إليّ ضارعة متوسلة وتقول : أنقذيني يا سيدتي وارحمي ضعفي وشبابي ، فأجد لكلماتها من الأثر في نفسي ما لا يستطيع أن

يشعر به إلا من كان له شأن مثل شأني .

« إنني حرمت في مبدأ حياتي السعادة الزوجية وهناءها ، ولقيت بسبب ذلك من الشقاء ما لا أزال أبكيه حتى اليوم ، فلا يبيح حزني ، ولا يستثير كامن لوعتي مثل أن أرى بين الناس فتاة محرومة السعادة مثل .

« إنني أحب وهي تحب ، ولا بد لواحدة منا أن تموت فداء عن الأخرى ، فلأمت أنا فداء عنها ؛ لأنها أختك ، ولأنها لم تقترف في حياتها ذنبًا تستحق بسببه الشقاء .

« وكنت كلما ذكرت أنها ستصبح سعيدة هائنة من بعدى ، وتراءى لي شبحها ، وهي لابسة ثوب عرسها الأبيض الجميل ، وسائرة إلى الكنيسة بجانب خطيبها ، طار قلبي فرحًا وسرورًا وهان عليّ كل شيء في سبيل غبطتها وهنائها .

« نعم إن الضربة التي سأستقبلها شديدة جدًا ، لا يقوى عليها قلبي ، ولكنني سأحملها بصبر وسكون ؛ لأن أباك سيصبح راضيًا عني ، ولأنك ستعلم في مستقبل الأيام سر تضحيتي ، فتحبني فوق ما أحببتني ! ولأن أختك ستصبح سعيدة مغتبطة بعيشها وحبا ؛ وسيكون اسمي بين الأسماء التي تدعو لها الله في صلواتها بالرحمة والرضوان .

« جاءت الساعة التي أقول فيها لأبيك كلمتي الأخيرة ، ولقد كانت شديدة هائلة أسأل الله أن يغفر لي بما لقيت فيها من الآلام ماضى ذنوبي وآتيها ، كما أسأله ألا يذيق مرارتها قلب امرأة على وجه الأرض من بعدى !

« قمت من مكاني كأنني أنتزع نفسي من الأرض انتزاعًا ، ومشيت إلى أبيك كما يمشی الحائض^(١) إلى مصرعه حتى جثوت بين يديه ، وأخذت

(١) الحائض : الذي حان هلاكه .

بيده ، فاستفاق من غشيته ونظر إليّ ذاهلاً مشدوها ، فقلت له : أعتقد يا سيدى أننى أحب ولدك ؟ قال : نعم . قلت : حباً هو منتهى ما تستطيع امرأة أن تحتمل ؟ قال : نعم . قلت : وأن هذا الحب هو كل آمالى وسعادتى ، وما أملك فى الحياة ؟ قال : نعم يا بنيتى . قلت : قد ضحيت من أجل ابنتك فعد إليها وبشرها بسعادة المستقبل وهنائه ، وقل لها : إن امرأة لا تعرفك ، ولم ترك فى يوم من أيام حياتها ، ولكنها تحبك وتشفق عليك ، تموت الآن من أجلك ، فاسأل الله لها الرحمة والغفران .

« فتهلل وجهه بشراً وسروراً ، ولم يدع كلمة من كلمات الشكر والثناء إلا أفضى بها إليّ ، فأنسأنى سروره واغبطاه ألم الضربة التى أصابت كبدى ، واستحال حزنى واكتئابى إلى راحة وسكون ، فحمدت الله على أن لم ير فى وجهى فى تلك الساعة ما ينغص عليه سروره واغبطاه .

« وهنا شعرت بحركة عند باب الغرفة فالتفت فإذا « برودنس » تشير إليّ بيدها . فذهبت إليها فأعطينى كتاباً جاء به البريد فقرأت عنوانه ، فإذا هو بخط المريكز « جان فيليب » فعلمت ما يتضمنه قبل أن أراه ، ووقع فى نفسى أن الله قد أوحى إليّ بما أفعل . فذهبت مسرعة إلى غرفة مكنتى أخاف أن يعرض لى فى طريقى ما يزعزع عزيمتى ، وهناك قرأت الكتاب وكتبت لصاحبه فى بطاقة صغيرة هذه الكلمة : « سأتعشى عندك الليلة . » ثم أعطيتها برودنس لتلقها فى صندوق البريد .

« وعدت إلى أبيك فوجدته حيث تركته ، فقلت له : إن أرمان لا يعلم شيئاً من أمر زيارتك هذه فاكتمها عنه حين تلقاه ، وسأكتب إليه كتاب مقاطعة لا يشك فى أنى صاحبة الرأى فيه ، وأن لا يد لك فيما كان ، وسيعلم اليوم أو غداً أننى قد اتصلت برجل غيره ؛ فبرى أننى قد ختته وغدرت

بعهده ، فلا يجد له بدءاً من أن يسافر معك قاطعاً رجاءه منى ، وربما تألم هذه الصدمة بضعة أيام أو بضعة أسابيع فلا تحفل بذلك ، فسيبلى حبي فى قلبه ، كما يبلى كل حب فى كل قلب .

غير أن لى عندك طلبه واحدة لا أريد منك سواها ، فهل تسمح لى بها ؟ قال : نعم أسمح لك بكل شيء . قلت : إنى مريضة مشرفة ، وإن العلة التى أكابدها كثيراً ما يتحدث الناس عنها أنها لا تترك صاحبها طالمت أم قصرت حتى تذهب به إلى قبره ، فكل ما أسألك إياه أن تأذن لأرمان فى اليوم الذى تعلم فيه أننى قد أصبحت على حافة قبرى أن يأتينى لأراه وأودعه الوداع الأخير ، وأعتذر له عن ذنبى الذى أذنبته إليه حتى لا أخسر حبه واحترامه حية وميتة .

« فنظر إليّ نظرة دامعة ، وقال : وارحمناه لك يا بنيتى ، إننى أعدك بما أردت ، وأسأل الله لك الشفاء والعزاء . ثم حاول أن يعرض عليّ شيئاً من المعونة فأبيت ذلك إباء شديداً ، وقلت له : إننى لم أبع نفسى يا سيدى بيعاً ، بل وهبتها هبة . فأخذ رأسى بين يديه وقبلنى فى جبينى قبلة كانت خير جزاء لى على تضحيتى التى ضحيت بها وودعنى ومضى .

« فما ابتعد إلا قليلاً حتى قمت إلى خزانتى ، فجمعت ثيابى وما بقى لى من حلاى ، ووضعتها فى حقبتى ، وسافرت مع برودنس إلى باريس ، وذهبت إلى منزلى هناك فكتبت إليك فيه ذلك الكتاب الذى تعلمه . والله يعلم كم سكت من الدموع ، وكم وقف قلبى بين كل كلمة وما يليها أثناء كتابته حتى أتمته ، فأعطيته حارس المنزل وأوصيته أن يسلمه إليك عند مجيئك . ثم ذهبت للوفاء بعهد المريكز .

« أما حياتى مع ذلك الرجل فلا أستطيع أن أقص عليك منها شيئاً سوى أن أقول لك : إنه لم ير فى المرأة التى كان يتخيلها ، ويمنى نفسه بها ، ولم أر فيه

الرجل الذى يؤنسنى ويخلط نفسه بنفسى ؛ فافترقنا ، فأصبحت لأعرف لى فى العالم صديقاً صادقاً ، ولا كاذباً .

« هذه قصتى يا أرمان كما هى ، وهذا ذنبى الذى أذنبته إليك . فهل ترى بعد ذلك أنى خائنة أو خادعة ؟

« قلبى يحدثنى أننى سأموت قبل أن أراك ، وأملى يخيّل لى أن ما فى نفسك من الموجودة على لا يستمر إلى ما بعد الموت ، وأنتك ستعود إلى باريس فى الساعة التى ينعانى لك فيها الناعى ؛ لتزور قبر تلك المرأة المسكينة التى تولت سعادة قلبك وهناءه حقبة من أيام حياتك ، ثم خرجت من الدنيا فارغة اليد من كل شىء حتى من حبك وعطفك ، وربما بلغ بك الاهتمام بشأنها أن تحاول معرفة ما تم لها من بعدك إلى أن ذهب بها الموت إلى قبرها .

« فهأنذا أكتب هذه المذكرات ، وأتركها لك عند برودنس لعلك تقرأها فى مستقبل الأيام ، فتنظر إليها كما تنظر إلى كتاب اعتراف مقدس قد ألبسه الموت ثوب الطهارة والبراءة ، فتصدّق ما فيها وتعفو عنى ، فينير عفوك ظلمات قبرى ، ويؤنس وحشة نفسى .

٣ يناير ١٨٥١

« أين أنت يا أرمان ؟ أنت بعيد عنى جدّاً ، بعيد بجسمك وبقليك ؛ لأنك لم تهمل كتابى الذى كتبته لك ودعوتك فيه لزيارتى وسماع اعترافى الأخير ، إلا لأن ما كان فى نفسك من العتب والموجدة على قد استحال إلى نسيان وإغفال ، فأصبحت لا تذكرنى كما يذكر المحب حبيبه ، ولا تعطف على كما يعطف الصديق على صديقه ، فليكن ما أراد الله ولتدم تلك السعادة التى تنعم بها بين أهلك وقومك ، فإنى غير واجدة عليك ، ولا ناقمة منك شيئاً ، ولا حاملة لك فى نفسى إلا الحب والإخلاص والرضا بكل ما تأتى ، وما

تدع .

« لى عدة أيام لم أرف فيها أحدًا من الناس ؛ لأن الطبيب منعنى من الخروج ، ولأن أصدقاءى الذين كانوا يعرفوننى فيما مضى قد أصبحوا يقنعون من زيارتى بإرسال بطاقاتهم لى مع خادمتى ، ثم ينصرفون مسرعين كأنما يفرون من أمر يخيفهم ، ولقد كانوا قبل اليوم إذا أرسلوها لبثوا ينتظرون الساعات الطوال حتى آذن لهم بالمقابلة ، فإذا ظفروا بها طاروا بها فرحًا وسرورًا ، وإن حرموها عادوا أسفين محزونين !

« ولا أدرى لِم لا يقطعون بطاقاتهم كما قطعوا زياراتهم ؟ فإن كانوا يظنون أنهم سيرونى بينهم فى مستقبل الأيام صحيحة الجسم طيبة النفس ، أصلى للمعاشرة والمخادنة كما كانوا يعهدوننى من قبل ، فهم فى ظنهم مخطئون .

« لقد أحسنوا فيما عملوا ؛ فإننى أصبحت لا آنس بأحد فى العالم سوى نفسى ، ولا آنس بنفسى إلا لأنى أستطيع متى خلوت بها أن أسألها عنك فتذكرنى بك وتلك الأيام السعيدة التى قضيتها معك فى بوجيفال ، وذكركى تلك الأيام هى العزاء الباقى لى عن جميع ما خسرت يدى .

« ما كنت أظن يا أرمان أن جسم الإنسان يحتمل كل هذه الآلام التى أكابدها ، فلقد تمر لى ساعات أعتقد فيها أن الألم الذى أكابده إنما هو ألم النزاع ، وأننى فى الساعة الأخيرة من ساعات حياتى ، فإذا استفتقت قلت فى نفسى : هذا ألم المرض ، وقد عجزت عنه ، فمن لى باحتمال ألم الموت ؟

« على أن نفسى تحدثنى أحيانًا أنه إن قدر لى أن أراك بجانبى فى يوم من الأيام برئت من مرضى ، وتراجعت نفسى وعدت إلى راحتى وسكونى ، فهل يقدر لى الله ذلك ؟

« لا أعلم ؛ فالمستقبل بيد الله فليقدر الله ما يشاء وليفعل ما يريد .»

٢٤ يناير ١٨٥١

« لم أفارق سريري منذ أيام طوال إلا صباح هذا اليوم ، فجلست قليلاً بجانب نافذتي ، وأشرفت منها على الحياة العامة ، فوقع نظري على كثير ممن كنت أعرفهم من قبل سائرين في طريقهم لاهين مغتبطين ، ولم أر بينهم من رفع نظره إلى نوافذ غرفتي مرة واحدة كأنما يمرون ببيت لا يعرفونه ، ولا عهد لهم به من قبل .

« ما أشد وحشتي ! وما أضيق صدري ! وما أثقل هذا الجدار الذي يدور

حول !

« لا أطيق النظر إلى سريري ؛ لأن نفسي تحدثني أنه سيكون عما قليل سلم قبري ، ولا الوقوف أمام مرآتي ؛ لأنها تحدثني عن نفسي أسوأ الأحاديث وأشأمها ، ولا الإشراف من نافذتي لأنها تذكرني بجياتي الماضية السعيدة التي حيل بيني وبينها ، فأين أذهب وكيف أعيش ؟

« لا آكل إلا طعاماً واحداً ، ولا أرى إلا منظرًا متكررًا ، ولا أسمع إلا صوت طبيبي وخدامتي حينما يسألها عنى صباح كل يوم ومساءه فتجيبه بجواب واحد ، حتى مللت وسمعت ، وأصبحت أشعر أن نفسي سجينة في صدري ، سجن جسمي في غرفتي ، وربما مرت لي ساعات يقف فيها ذهني عن التفكير وخطري عن الحركة ، وينقطع ما بيني وبين يومي وأمسي وغدى وكل شيء في الحياة حتى نفسي .

« السعال يهدم أركان صدري هدمًا ، والنوم لا يلثم بعيني إلا قليلاً والطبيب يعدبني بمشارطه وضماداته (١) عذاباً أليماً ، وكل يوم أشعر أن

(١) المشارط : جمع بشرط وهو ما يُشترط به الجلد لاستفراغ الدم . والضمادات : العصابات توضع على العضو المجرّوح أو المكسور .

نفسى يزداد ضيقًا ، وبصرى يزداد ظلمة ، وأن الحياة تبعد عن ناظري شيئاً فشيئاً ، حتى أكاد أحسبها شيئاً من الأشباح النائية فمتى ينقضى عذابي ؟!

٣٠ يناير ١٨٥١

« سمعت صباح اليوم لجبًا كثيرًا في فناء المنزل ، فسألت برودنس : ما الخبر ؟ فذهبت وعادت إليّ تبكي ، وتقول : إنهم يحجزون أثاث المنزل يا سيدتي . فقلت : دعهم يفعلوا ما يشاؤون . وما هي إلا لحظات قليلة حتى دخلوا غرفتي مندفعين متصايحين ، ولم يمر بخاطر واحد منهم أن يرفع قبعته عن رأسه احترامًا لصاحبة المنزل ، أو يخفض صوته إشفاقًا على المريضة المعذبة . فمشوا يسجلون كل ما وقع نظرهم عليه ، وخفت أن يسجلوا دفتر مذكراتي فأشرت إلى برودنس أن تخفيه عنهم ففعلت ، فحمدت الله على ذلك . ثم وصلوا إلى سريري فطلب أحد الدائنين حجزه ، وقال إنه ثمين ، سيكون له يوم البيع شأن عظيم ، فأفهمه الحاجز أن القانون يستثنى الأسرة وفرادىها ، وألقى في أذنه كلمة أحسب أني سمعته يقول فيها : إنك تستطيع أن تفعل ذلك بعد موتها ! ثم انصرفوا بعدما تركوا على باب بيتي حارسًا لا يفارقه ليله ونهاره .

« فكتبت إلى « الدوق موهان » . وهي أول مرة كتبت إليه فيها أستغفره ذنبي الذي أذنبته إليه ، وأشكو له ما نالته يد الأيام منى وأستحلفه بذكري ابنته الكريمة عليه أن يأتي لزيارتي ، ففعل فبكي عندما رآني ، ولا أدري هل بكاني أو ذكر عند رؤية مصرعي مصرع ابنته الأخير فبكاها ، ثم قضى بجانب فراشي ساعة مطرقًا صامتًا لا يحدثني إلا قليلاً ولا يذكر الماضي بكلمة واحدة ، ثم ذهب وترك في يد برودنس ضمة أوراق ، استبقت بعضها للفقمة واستعانت بباقيها على تأجيل بيع الأثاث بضعة أشهر .

« لا أستطيع أن أكتب إليك اليوم أكثر مما كتبت فإن الطبيب ما زال يلح على جسمي بالفصد حتى أواهه واستنزف دمه ، فأصبحت لا أتحرك حركة إلا شعرت بألم عظيم . »

٢ فبراير ١٨٥١

« إن هذا اليوم أسعد أيامي وأهنؤها ، فقد وصل إلي من أهلك كتاب هذا نصه :
سيدتي :

« إني أتوجع لك توجعًا شديدًا ، فقد علمت بالأمس من بعض الوافدين إلى « نيس » أنك مريضة مرضًا شديدًا منذ شهرين ، وأنت لا تخرجين من منزلك إلا قليلاً ، فأسال الله لك الشفاء والعزاء ، وأضرع إليه أن يجزيك خيرًا بما قاسيت من الآلام والأوجاع في سبيلي وسبيل ابنتي . وأبشرك أن الله قد تقبل قربانك الذي قدمته إليه ، فإن سوزان قد تزوجت من خطيبها منذ عشرين يومًا وأصبحت هانئة بحبها وعيشها كما أردت لها ، وإنما وإن لم تكن تعلم من أمر تلك القصة التي نعلمها شيئًا فقد قلت لها : إن بعض الناس — ولم أسمه لها — قد ضحى بنفسه وبسعادته في سبيل سعادتك وهنائك ، فلا تتركي الدعاء له في جميع صلواتك بجزيل الأجر وحسن المثوبة ، فهي لا تزال تدعو لك صباحها ومساءها أن يحسن الله إليك كما أحسنت إليها .

« أما الكتاب الذي أرسلته إلى أرمان في أوائل الشهر الماضي فلم يصل إليه إلا اليوم ؛ لأنه منذ فارقتك وسافر إلى « نيس » لم يستطع البقاء فيها إلا بضعة أيام ، ثم رحل عنها إلى الشرق حزينا مهموما من أجلك ، وكنت لا أعرف الجهة التي يقيم فيها ، فلم أستطع أن أرسله إليه حتى عرفتها منذ أيام قلائل فأرسلته وأرسلت معه كتابًا أطلعه فيه على قصتك ، وأقول له إنني

لا أرى مانعًا يمنعني بعد زواج أخته من أن آذن له بالسفر إلى باريس والبقاء فيها ما شاء أن يبقى ، وأحسب أنه يصل إليك في عهد قريب .
« أرسلت إليك مع كتابي هذا عشرة آلاف فرنك أرجو أن تقبلها مني ، وأن تنظري إليها بالعين التي تنظر بها الفتاة إلى هدية أبيها الذي يحبها ويحبها ، فإن فعلت أحسنت إلي بذلك إحسانًا عظيمًا .
« لي الأمل أن أسمع عما قليل خبر شفائك ، وأرجو أن أراك في مستقبل الأيام ناعمة بصحتك وسعادتك .

« دو فال »

« فما قرأته حتى شعرت بهزة من السرور في قلبي ، لم أشعر بمثلها مذ فارقتك حتى اليوم ؛ فقد علمت أن سوزان قد تزوجت ، وذلك ما كنت أرجو لها ، وأنت لا تزال تحبني ، وقد أخاف نسيانك أكثر مما أخاف عيبك ، وأنتى سأراك عما قليل ، وتلك آمالي في الحياة .
« أما الهدية التي أرسلها إلي أبوك فقد نظرت إليها بالعين التي أرادها ؛ فقبلتها شاكرة له حامدة ، أحسن الله إليه كما أحسن إلي . »

٣ فبراير ١٨٥١

« استطعت أن أنام ليلة أمس أكثر من كل ليلة ؛ لأن السرور الذي تركه كتاب أهلك في نفسي شغلني عن كل شيء حتى عن ألمي ، وفي الصباح قال لي طبيبي إنك اليوم خير منك في كل يوم ، وإن الشمس مشرقة ، والهواء فاتر عليل ، فأخرجني في مركبتك إلى بعض المنتزهات ساعة ، ثم عودى .
« فخرجت إلى غابات « الشانزليه » فرأيتها زاهرة بالحياة والجمال ، ورأيت الناس فيها ضاحكين متلهلين مغتبطين بسعادة لا يعرفون قيمتها كما تعرفها امرأة محرومة منها مثلي ، فلم أحسدكم على نعمتهم التي آتاهم الله ، بل

دعوت لهم ببقائهما ودوامها ، إلا أنني حزنت على نفسي حزناً شديداً حينما رأيت أن كثيراً من معارفى الماضين قد مروا على مقربة منى ، ولم يعرفونى ، ورأيت أحدهم ينظر إلى ، وقد مر بجانب مركبتى نظراً المتخيل المتوهم ، ثم لم يلبث أن لوى وجهه عنى ومضى لسبيله ، وقد استقر فى نفسه أنه يرى امرأة غير المرأة التى يعرفها .

« فعلمت أنى قد تغيرت تغيراً عظيماً ، وأن مرأتى ما كانت تكذبنى حينما تحدثنى عن نحولى واصفرارى ، واستحالة صورتنى ، بل صدقتنى كما صدقتنى الناس .

« ثم رأيت الشمس قد توارت وراء حجائها فعدت إلى منزلى ، وقد زال من نفسى ذلك الحاطر الذى أحزنتنى ، وحل محله خاطر آخر خير منه ، وهو أننى سأراك عما قليل .

« وسينقضى ببقائك عهد بؤسى وشقائى . »

٧ فبراير ١٨٥١

« ما أحسب أنك مدركى يا أرمان ، فقد بلغت فى العلة منتهاها وأصبحت لا أجد الراحة فى قيام ولا قعود ، ولا نوم ولا يقظة ، وانتشرت الآلام والأوجاع فى جميع أعضائى ومفاصلى ، وكأن حجراً من الأحجار العاتية تمتد على صدرى بمنعنى التنفس والحركة ، وقد عجزت اليوم عن أن أنتقل من سريرى إلى مكتبى ، فأمرت برودنس أن تأتىنى بمحبرى ودفترى حيث أنا ، فجاءت بهما إلى ، فأنا الآن أكسب إليك وأنا فى فراشى ؛ فمتى أراك يا أرمان لأحيا برؤيتك أو أودعك قبل أن أموت ؟ »

١٠ فبراير ١٨٥١

« أملى فى الحياة ضعيف جداً ، ها هو الموت يدنو منى رويداً رويداً ، لم

تأت إلى حتى الساعة يا أرمان ، وأظن أنى سأموت قبل أن أراك ، إن الموت مخيف جداً يملأ قلبى رعباً وهولاً ، لا أعلم كيف أستطيع أن أسكن وحدى تلك الحفرة الموحشة المظلمة التى لا أنيس لى فيها ولا سيمى ، لم أتمتع بالحياة طويلاً وكانت كل سعادتنى فيها آمالاً وأحلاماً ، وهأنذا أموت قبل أن أرى شيئاً من آمالى وأحلامى .

« ما أحلى الحياة وأمر فراقها ، لم أنل منها طائلاً ، ولكنى لا أحب أن أتركها ، لقد سعد الذين يُعمرون فى الحياة طويلاً ، ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذرية صالحة أو عملاً طيباً يعيشون به بعد موتهم زمناً أطول مما عاشوا . أما أنا فإنى سأموت فى ربيع حياتى ، وسيموت ذكرى فى الساعة التى أموت فيها ، وكأنى لم أعش فى الحياة يوماً واحداً ، وأسفاه على ما فرطت فى حياتى الماضية ، إننى أدفع اليوم ثمن ذنوبى وآثامى أضعافاً مضاعفة !

« لقد كنت أستطيع أن أقنع بالمضغة والجرعة ، ولا أمد عينى إلى ما تقصر عنه يدى فلم أفعل ، فها أنذا لا أسبغ المضغة ولا الجرعة ولا أجد السبيل إلى العيش على أية صورة كانت .

« أهكذا أخرج من الدنيا غريبة عنها كما دخلت فيها لا يحضر موتى قريب ، ولا يبكى على صديقى ؟! أهكذا تنتهى حياتى فى الساعة التى أحببتها فيها وأصبحت على مرحلة واحدة من أحلامى وآمالى ؟! »

« آه لو يمهلى الموت قليلاً فرجما كنت على مقربة منى ، فأنظر إليك نظرة واحدة ثم أموت . لا أمل لى فى ذلك ؛ فقد رأيت طبيبى صباح اليوم يلقى فى أذن خادمته وهو خارج من عندى كلمة ، فسألته عنها فدارت حولها ولم تقلها ، وما أحسبها إلا تلك الكلمة الهائلة . لا أكاد أبصر شيئاً مما حولى حتى يياض الصحيفة التى فى يدى . كنت قبل اليوم أنفث الدم وحده ، والآن

أنتفت أفلاذ رثتي مصبوغة باللحم .

و من لي بكأس من السم أشربها جرعة واحدة فاسترخ من هذا العذاب الذي يساورني ، ولكن أي فائدة لي من ذلك ، وما هو ذا الموت يحشى إلي بأسرع مما أمشي إليه ؟ رحيمك اللهم واحسانك ، فأنت وحدك العالم بقدر ألي وصلابي ، فارحمني وهون علي أمري ، وامنحني إحدى الراحتين .

و لا أرى شيئاً ، ولا أعرف ماذا أقول ، وربما كانت هذه الكلمات آخر ما تخطه يدي .
١٤ فبراير ١٨٥١

و لا تخزن علي كثيراً بعد موتي يا أرمان ، فحسبي منك أن تذكرني ولا تتسلى ، وأبشرك أن الله قد استجاب لدعائي ؛ فالقني في نفسي منذ الأمس برد الراحة واليقين ، ورحا من قلبي جميع غاؤفه وروساه ، فعلمت أنه قد رضي عني ، وغفر لي ذنبي ، وأصبحت لا أخشى الموت ولا أخاف بعده ، ولا أخرج من الألم ، ولا أبكي أسفاً على الحياة ، فلا يجزئك أمري حين تلمه ، وعش سميلاً بين قومك ، وأملك ، وأكرم أباك فهو خير الآباء وأحب أهلك فهي أظهر الفتيات ، وأرصيدك خيراً بيروندس فهي فتاة طيبة القلب ، عظيمة الإخلاص لي ولك ، وأخاف أن يتكرر لما الدهر من بعدى .
و إن الله قد خلق لكل روح من الأرواح روحاً أخرى تماثلها وتقابلها ، وتسمد بقاتها وتنشق بفرقها . ولكنه قدر أن تفضل كل روح عن أخيها في الحياة الأولى . فذلك شقاء الدنيا ، وأن عيني إليها في الحياة الثانية . وذلك سعادة الآخرة .

و فإن فاتتني سداق بك في الأرض ، فسأنتظرها في علباء السماء .
وهنا كتبت بعض كلمات مضطربة ، قد عا اللمع أكرها فلم يبق منها واضعاً بعض الوضوح إلا كلمة « الوداع » !

*** **

بقية المذكرات

بقلم الحفادمة بيروندس

١٤ فبراير ١٨٥١

و لم تستطع مرغريت يا سيدي ، أن تكذب لك أكثر مما كتبت ؛ لأن الطبيب منعها الحركة ، ولو أرادها لمجرت عنها .

و أنذكر يا سيدي ذلك الجسم المفض الناعم ، الذي كان يوجج بالنور موجاً ويشرق وراءه بشرته بإشراق الخمر في كأسها ؟ لقد أصبح اليوم عظيماً جليلاً وهيكلًا قائماً لا يساوي عن النظر إليه .
و أرحمته لك ! لقد مات كل شيء فيها إلا قلبها وشعورها ، وليتبعها ما كان معها ؛ فإنه لا يعذبها شيء مثل خواطرها وأفكارها !

و لا يدخل من باب غرفتها داخل ، حتى ترفع نظرها إليه تنظن أنك قد جثتها ، فإذا دنا منها ورأته أطلقت جفنتها على دموعه تنحدر من بينهما بالرغم منها .
و إنما لا تتكلم كثيراً فإذا تكلمت كان أول حديثها : ألم يأت أرمان ؟ فإذا أجبتها أن لا ، سألت عن أمر آخر تطلبه به ، أو عادت إلى صحتها مرة أخرى .

و لقد رأيتها اليوم أن طبيها لم يأتها ، فلما أردت أن أعترض لها معه لم تصدقني ، وقالت : الآن عرفت كلمته التي ألقاها إليك بالأمس . فسكت ، ولم أعرف ماذا أقول .

١٤ فبراير ١٨٥١

« أصبح اليوم صوتها ضعيفًا جدًا لا أكاد أسمعها ، وأظلم بصرها فهي تنظر إليّ ولا تتراني ، وقد أشارت إليّ في الصباح مرارًا أن أفتح لها نوافذ الغرفة لتستنشق الهواء وتروح عن نفسها ، ونوافذ الغرفة مفتوحة يجرى منها الهواء متدفقًا ، ولكنه لا يصل إلى صدرها .

« آه لو أستطيع يا سيدي أن أبيع حياتي لأشتري لها بضعة أنفاس تتردد في صدرها ، أو بعض سنوات من النوم تأوي إلى جفنها ، فإن تنفسها يؤلمني ويعذبني عذابًا شديدًا ، وقد مرت بها ثلاث ليال لم تنم فيها لحظة واحدة !»

١٥ فبراير

« بعد صمت طويل لم تنطق فيه بحرف واحد فتحت عينيها ، وناديت بصوتها الخافت الضعيف فدنوت منها ، فقالت لي : أريد الكاهن فأتيني به . فعلمت أنها قد أصبحت على يقين من أمرها ؛ فغالبت عبراتي حتى خرجت من الغرفة ، فبكيته ما شاء الله أن أفعل ، ثم ذهبت إلى الكاهن فتردد عندما ذكرت له اسم المرأة التي يريد الذهاب إليها ، فضرعت إليه وقلت له : إن رحمة الله يا سيدي لا يستحقها أحد مثل الآثمين المسرفين . فأذعن بعد لأي وجاء معي فخلاها ساعة ثم خرج ، فسألته :

أيرحمها الله يا سيدي ؟ قال : إنها عاشت عيش الآثمين ، ولكنها ستموت موت المؤمنين . فحمدت الله على ذلك .

« ومنذ تلك الساعة لم أعد أسمع منها كلمة واحدة ، ولا أرى عضوًا من أعضائها يتحرك ، إلا ما كان في صدرها يترجع بين الصعود والهبوط .»

١٥ فبراير — ساعة الغروب

« إن مرغريت تتعذب كثيرًا يا سيدي ، وأحسب أنها تعالج سكرات

الموت .

« لم يقاس إنسان في حياته مثل ما تقاسيه الآن من آلامها وأرجاعها . إنها تصرخ من حين إلى حين صرخات تذوب لها جيات القلوب .

« ولقد اشتد بها الألم الساعة فهبت من مكانها صارخة ، وانتصبت على قدميها في سريرها حتى كادت تسقط عنه ، فأدركتها وأضجعتها في مكانها ، ففتحت عينيها فسقطت منهما دمعتان كبيرتان ، وكأنا أحست بي فاعتنقتني وضممتني إليها ضمًا شديدًا ، ثم ما لبثت أن تراخت يداها وعادت إلى نزعها وجهادها .»

١٥ فبراير — نصف الليل

« قضى الأمر وماتت مرغريت ، ولم يبق منها على سريرها إلا جنبها التي ستهب غداً إلى قبرها ، تلك غايتها وغاية كل حي ؛ فصبراً على قضاء الله وبلاته !

« لقد هنتت باسمك كثيرًا يا سيدي في ساعتها الأخيرة ، وكان آخر عهدنا بالحياة أن نظرت إليّ نظرة طويلة مملوءة حزنًا ودموعًا ! ثم حركت أصبعها حركة خفيفة ، وأشارت إلى دفتر مذكراتها الذي كان ملقى بجانبها وقالت : « أرمان » ففهمت أنها توصيني أن أبلغه إليك ، ثم أسلمت روحها .

« عزيز عليّ يا سيدي ما لقيت من العذاب قبل موتك ، وعزيز عليّ أن تموتني ، ولا تجدي بجانبك من يغمض عينيك ويلقى رداءك عليك سراي ! وفي سبيل الله تلك النفس الطاهرة الكريمة التي ما حملت في حياتها شرًا دوسن . ولا لمسيء ، وذلك الصدر الرحب الذي كان يسع الدنيا بأرضها ومجالها . ولا يضيق عنها ، وذلك القلب النقي الأبيض الذي ما أضمر في حياته شرًا .»

أو الإحسان ، ولا فاض إلا بالرحمة والحنان .

بكت برودنس بجانب جثة سيدتها ما بكت ، ثم أنارت حولها الشموع ، وبعثت إلى الكاهن فجاء وجثا عند رأسها يقرأ في كتابه ، ومشت هي إلى المكتب فجلست إليه تكتب آخر مذكراتها حتى فرغت منها .

ثم قامت من مكانها فراعها أن رأت شيئاً مائلاً على باب الغرفة ، فمشت إليه فإذا هو أرمان في لباس السفر ، وقد ألقى من مكانه على سرير الميتة نظرة غريبة هائلة كتلك النظرة التي تسبق صرعات الجنون ، ثم استردها وألقاها عليها ، وسألها :

« من هذا المسجى على هذا السرير ؟ » فبكت برودنس ولم تقل شيئاً ، فسقطت حقيبتها من يده ، وجمد في مكانه لحظة لا ينطق ولا يتحرك .

ثم اندفع إلى سرير الميتة صارخاً يريد أن يلقي بنفسه عليه ، فأدركته برودنس ووقف الكاهن في وجهه ، وقال له :

« احترم الموت أيها الفتى . » فاختنقت عبراته في صدره وارتعد ارتعاداً شديداً وسقط مغشياً عليه .

فلم يستفق إلا مطلع الفجر حينما شعر أنهم قد أقبلوا يحملون الجثة ، فقام يتحامل على نفسه حتى دنا من السرير ، وقال :

« رحمة لي أيها الناس ؛ فقد فاتني أن أودعها ، وهي حية ، فأذنوا لي أن أودعها ميتة . »

فرحموه وأفرجوا له عنها حتى داناها ، ورفع الغطاء عن وجهها وقبلها في جبينها ، وقال :

« الوداع يا أعز الناس عندي ! الوداع يا خير فتاة في الأرض وأشرف روح في السماء ! » ثم أعاد الغطاء على وجهها ، وتراجع عنها وأذنهم بحملها .

ثم مشى وراء نعشها يبكي ويتنحب ، ولم يمض ورائه النعش غيره وغير الخادمة برودنس ، والدوق موهان ، وهو يتوكأ على عصاه ، ويقول في ندبه وبكائه :

« هاأنذا أرى ابنتي تموت أمامي مرة أخرى ، ولا أزال حتى الساعة على قيد الحياة ، وبعض نسوة بائسات من ضحايا تلك المقادير . »

وما انقضى النهار حتى انقضى كل شيء ، وأصبحت مرغريت رهينة قبرها ، وأرمان طرح فراشه يقرأ في مذكراتها ويبكي بكاء الناكث المفجوع . ثم اشتد به المرض بعد ذلك ، فلم تر برودنس بدءاً من أن تكتب إلى أبيه تشرح له سوء حاله ، فحضر وحضرت معه ابنته وزوجها ، ولبثوا بجانبه شهراً يعللونه ويشفتون له ، حتى أبُل ونجا من خطره .

ثم ذهبوا جميعاً إلى قبر مرغريت ليودعها قبل سفرهم ، فيكوا حوله بكاء شديداً ، وكانت سوزان أشدهم بكاء عليها ، وإن كانت لا تعلم أنها تبكي المرأة التي ضحت بنفسها في سبيلها .

ثم تقدم المسيو دوفال إلى ولده ، وقال له :

« أتغفر لي ذنبي يا بنى ؟ »

قال : « نعم يا أبناة لأنها غفرت لك ذنبك إليها . » ثم انصرفوا .

مرت الأيام وانقضت الأعوام ، ومات المسيو دوفال ، وسعد ولده كما أراد له أبوه ، ولكن بقيت بين جنبيه لوعة معتلجة ، لا يروحها عنه كلما ساورته إلا قراءة مذكرات مرغريت ومحادثة برودنس عنها وزيارة قبرها من حين إلى حين .

مؤلفات أمير الشعراء أحمد شوقي

- ديوان الشوقيات (١) في السياسة والتاريخ والاجتماع
ديوان الشوقيات (٢) في الخصوصيات
ديوان الشوقيات (٣) في الحكايات
ديوان الشوقيات (٤) في ديوان الأطفال

مسرحيات

- ١ - مجنون ليلى
٢ - مصرع كليوباترة
٣ - عنتره
٤ - قنبر
٥ - على بك الكبير
٦ - الست هدى
٧ - أميرة الأندلس

مؤلفات مصطفى لطفى المنفلوطى

- ١ - الفضيلة - بول وفرجينى
٢ - الشاعر - سيرانو دى بوجراك
٣ - فى سيل التاج
٤ - النظرات (ثلاثة أجزاء)
٥ - العبرات
٦ - ماجدولين

الفهرس

صفحة	
٦	التييم
٢١	الشهداء
٤٠	الحجاب
٥٦	الذكرى
٧٢	الهاوية
٨٥	الجزاء
١٠٠	العقاب
١١٩	الضحية
١٥٢	مذكرات مرغريت
١٧٧	بقية المذكرات